نماذج أدبية نتاج سياسة بني أمية
عمر بن أبي ربيعة أنموذجاً

د. وجـــيهة محمد المـكاوى
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
فرع جامعة الأزهر بالسادات

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب اختيار البحث

العصر الأموي يمثل حلقة بيِّنة الملامح في قلادة شعرنا ومسيرتنا ، وإثبات الوجود العربي .. إذ كان وجود العرق العربي قوياً آنـذاك ، وكان القرآن الكريم بنظمه الفريد يظلل الإبداع رغماً عن أن وشم النهج الجاهلي مازال زاهياً مشعاً في الأذهان بِسَمْته وسِمَاته ، وحول الحكـام الأمويون الحكم إلى ملك عضود فأوغروا النفـوس وتولـدت ظـواهر متوالية على كافة الأصعدة وكان للأدب النصيب الموفور وهناك نماذج منفردة لفتت الأنظار ، أو اشتهرت لتفردهـا بمـا حوتـه مـن فريـد الخصال ، ونادر المزايا .. وعمر بن أبى ربيعـة ... شخصـية لـم تتكرر، بل تشظت سماته في شعراء عدة كلٌ اكتنز سمة من سـماته ، وخاصية من خواصه ، أما هو فقد كان كلاً متكاملاً ، وتجلت في شعره " صورة المرأة العربية على حقيقتها كما عاشت في أحضان مجتمعهـا الأموي لا كما عاشت في أحضان الشـعر وبـين خيـالات الشـعراء [١]"ونضح شعره بهذه الفكرة التي تشبع بها . فإبداعه لا يرشحه ليكون زعيم الغزليين " في العصر الأموي فقط بل يجـب أن يكـون زعـيم الغزليين في الأدب العربي كله [٢]"

إذ أتاح المجتمع وسائل الالتقاء ، وكثر الثراء ، ولانت القبضـة

---

١ – صور المرأة في شعر عمر بن ابى ربيعة ، خليل محمد حسين عودة ، رسالة ماجستير كلية الآداب ، إشراف د يوسف خليف صـ١١ ١٩٨١

٢ – شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى . ت.محمد محى الدين عبد الحميد ط ١-١٩٥٢ صـ ٦٥ .

على النساء فأصبح التقاؤهن الرجال في غير مأثم أمراً يسيراً متاحاً ومباحاً ، فاستمسك عمر به ،وأفاض في وصف جزئياته .. مقدماته ونتائجه ، وأبدع في نظم متفرد لفت الأنظار " وقد استغل عمر من أجل ذلك كل طاقاته المادية والشخصية ، حتى أصبح أعجوبة من أعاجيب زمانه وفحلاً من فحول الشعر العربي " (١)

وقد كانت المرأة على مر العصور مصدراً للوحى والإلهام بالنسبة للرجل ، وسبباً " في الدفع والإقدام، وموضوعاً أساسياً له كفنان مبدع في أي لون من أفرع الفن : فالمرأة ملهمة له ، أَدَباً وشعراً ورسماً وموسيقى (٢) "

والمرأة بالنسبة لعمر موضوع حياته ، وشغله الشاغل ، جنَّد نفسه للاستمتاع بها وإمتاعها بفنه ،نأى بنفسه عن صراعات تكسو الساحة السياسية ، وقرب من عالم المرأة ، وعرض كل ذلك من خلال ذاتية عمر النرجسية التي تميل إلى الاعتداد البيِّن بالنفس ، والزهو الواضح بحيازته لخصال وسمات جعلته مطلوب النساء ومرغوبهن .. والمعروف أن الذاتية تتضح في الفخر بشكل بَيِّن ، لكنى آثرت أن أستفيض فيها في الغزل فهي أوضح وأبْيَنْ . ونجد أن غالبية شعر عمر ابن أبي ربيعة اتسم بالأحادية على المستوى الموضوعي الظاهرى .والمرأة تقدر لعمر انصراف جهده لها عمن سواها، وتعظم الفنان الذى ما يكاد ينطق قافية حتى يشدو بها المغنون وتتناقلها الآذان والألسن ، ولقد حرصت الفضليات على لقائه بل وشجعنه على نظم الشعر فيهن ؛ وها هي "فاطمة بنت الأشعث " ترسل له بالزيارة ، فلما أتاها جعلت

١) المرجع السابق صـ ٤٤

٢) الفن والمرأة ، شريفة فتحى صـ ٤ سلسلة كتابك ع ١١٢ دار المعارف

بينها وبينه سجفاً تراه ولا يراها ؛ فما إن استخفها الشعر حتى رفعت تلك السجف "[١] إعجاباً بشعره، وإدراكاً لقيمته وفرحة باحتضانه في إيابها إلى بلدها ولا سيما وهو متخصص في التغزل بالفاتنات يتبع الجمال وينوه عليه ؛ لا لغرض إلا حب الجمال . [٢]

. وقد حرصتُ على الإمساك عن ذكر ما شاع وانتشر باستفاضة من شعره وحياته رغبة عن التكرار ، وأثبت ما تراءى لي أنه لم تلكه الأفواه بكثرة ، حرصاً على إثبات المستطرف –ولا طريف على سيادتكم –

وقد سار البحث على النحو الآتي :

توطئة : عصر عمر بن أبى ربيعة وظروفه السياسية والاجتماعية

الفصل الأول : عمر بن أبى ربيعة .. حياته ونشأته .

الفصل الثاني : الصور الشعرية الغزلية عند ابن أبى ربيعة .

الفصل الثالث قراءة جديدة لبعض أبيات الرائية الكبرى العمرية .

الخاتمة والنتائج .

١) الأغاني جـ ١ ٩٥ .

٢) وقد اعتمدت على ديوان كتاب " شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى . ت. محمد محى الدين عبد الحميد ط! ١– ١٩٥٢ .

الدولة الأموية

أججت الدولة الأموية (٤١ –١٣٢ه) العصبية القبلية وتبع الفرع الأموي الكثيرون من قريش ، انتصاراً له على الفرع الهاشمى ؛ إذ كان لزواج معاوية من " ميسون بنت بجدل " من قبيلة كلب اليمنية أثر كبير في لَمّ القبائل للتعصب لمعاوية وآرائه ، إذ أنجب من ميسون ولىّ عهده يزيد ؛ فأيدت كلب اليمنية ، والقبائل الموالية لها معاوية في حكمه ، وسارت في ركابه

جعلت العصبية القبلية التهاجى بالقبائل لا بالأفراد ؛ فإذا ما شب نزاع بين فرد وآخر نجد أقرب المرميات القبيلة لا الشخص نفسه . بل إن أشهر خصومة أدبية– نافعة للأدب – كانت من خلال هذا الطريق فسبب اشتعالها بين جرير والفرزدق " أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادى باسم قبيلته ياللنخع ، أويالكندة ؛ فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها ، فينادون يالتميم ، أو يالربيعة ، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى إلى قبيلته ، فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة [١] " وفى موقعة مرج راهط ٦٤ هـ قيل شعر كثير بين الأمويين والزبيريين ، وانتصر الأمويون وانهزم الزبيريون والقيسيون فكانت مجالاً جديداً للتفاخر .

وقد سار الخلفاء على هذا المنوال يغرون الشعراء بعضهم ببعض ؛ لتتأجج الخصومة وتشتعل الخلافات وكان الناس يتابعون تلك

---

١) اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د صلاح الدين الهادى، مكتبة الخانجى ، ط١ ،١٩٨٦ ، صـ ٥٥ ٢

٢) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى . ت.محمد محى الدين عبد الحميد صـ ٦٥

الخصومات والمهاجاة بشغف ومتعة .ونأى عمر بن أبى ربيعة بنفسه عن الولوغ في هذا الخضم التحزبى ورفض إذكاء حزب ومعاداة آخر ؛ وأدار ظهره للسياسة وولع بالفن والجمال يهيم به ويتبعه وينوه عليه ؛ وقد عكست أشعار عمر بن أبى ربيعة الحياة الأموية ، وصبغتها في الحجاز ؛ كما عكست أشعار أبى نواس الحياة العباسية وصبغتها بصبغة الحياة في بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة . ولا شك أن شعراء آخرين أصابوا المحز وأفاضوا في تبيين تلك الشيات كما فعل بن الضحاك، وأبو العتاهية ، والعرجى والأحوص وابن ذريح ، لكن لن تجد عند أحدهم أو عندهم مجتمعين ما ستجده " عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة البغدادية على حقيقتها[١] – على حد قول د طه حسين – . فالحياة الأموية السياسية، أفرزت مظاهر وظواهر عدة : – فمن بين مؤيدين ومعارضين باذلين النفس والنفيس للمهاجمة أو للقربى نجد ثمة فئة غير مهتمين ولا مبالين – أو هكذا عاشوا – مشغولين بأنفسهم مبرزين ميولهم وهواهم ، وإذا كان المجتمع الأموي شرائح وفصائل ينتمى إلى مواقع مكانية ؛ لكل منها صبغتها ووضعيتها لكن " المؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة الأرستقراطية القرشية في الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبى ربيعة قبل أن يلتمسها في أخبار التاريخ وحواديته المختلفة ، فستجد في هذا الشعر كيف أن سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة بل سيجد ألوان الصلات المختلفة الحلوة المبتسمة التي كانت تصل بين هؤلاء السراة "[٢]

١) حديث الأربعاء طه حسين صـ ٧٣ جـ ١ ط ٥ .

٢) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى . ت.محمد محى الدين عبد الحميد صـ ٦٦.

فهذه الحياة فرضها ولاة بنى أمية فانعكست على الناس ، وبالتالى تبدت في الأدب ، فظهر عمر بن أبى ربيعة الذى تفرغ لرصد المرأة الأموية ، ففي شعره نرى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة ، تنفق حياتها في هذه الدعة والنعمة واللين على عفتهما وطهارتهما لا تخلوان من لهو ودعابة ، ولا من عبث وفكاهة ، والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك " عند عمر بن أبى ربيعة فستجد في شعر هذا الشاعر كل ذلك " (١)

وعمر ظاهرة لا نغالى إذا قلنا نتاج سياسة بنى أمية إذ حافوا على الحجازيين ناشري الإسلام ،ومهبط الديانة، واستبعدوهم ونكلوا بهم فاستعدوهم ؛ وتركوا السياسة وحبائلها البغيضة ومنغصاتها ، ولجاؤا إلى المرأة ومراوغتها المحبوبة ، ابتعدوا عن المنغصات وتتبعوا المبهجات

لذا فنحن مدينون للسياسة الأموية التي نفرت الشاعر منها فاجتنب الحقل السياسي وسلم من الأهواء ، وأقبل على الفضاء النسائي مصوراً كل الأهواء .

لذا كانت سياسة بن أمية هي السبب الرئيسي في ظهور بعض الظواهر الأدبية وتصدرها للساحة

١) اتجاهات الشعر في العصر الأموي د صلاح الدين الهادى صـ ٥٥.

توطـئـــة

عصر عمر بن أبى ربيعة
وظـروفه السيـــاسية والاجتماعية

اجتمعت ظروف في العصر الأموي أحـــدثت بونَـــاً شاســـعَاً إذ سحبت السياسة يد التغيير على كل شيء " لقد أغضبت سياسة الأمويين كثيراً من المسلمين بسبب نقلهم عاصمة الخلافة من الجزيرة العربية إلى الشام واتباعهم سياسة اقتصادية أدت إلى تجميع الثروات في المنـــاطق الحضرية ، وتكوُّن طبقة ثرية تقطن هذه المنـــاطق ، ممـــا أدى إلـــى ازدهار الشام على حساب الجزيرة ، وحرمان أهل البادية من حق ملكية الأراضي التي احتكرها سكان المدن ؛ فكانت الثورات والمعارضات [١] "

وفى هذا المجال كانت الطفرة التـــي نشـــرت صـــبغة التغييـــر المستحدث على البيئة العربية وما استتبع ذلك من تغيير في كافة الأشياء ؛ فإذا " قوافل التجارة والرزق تتوازى في تدفقها مع قوافل الرقيق الذين جُلِبوا من كل مكان شهد احتكاكاً حربياً بين المسلمين وخصومهم[٢]

وفى المجال الاجتماعي تغيرت كثيرًا من المفاهيم ؛ إذ لم تنقطع أسباب التقاء الرجل بالمرأة ، لكنها اختلفت اختلافاً بيِّنـــاً ، فهـــي وإن كانت في العصر الجاهلي نظرة عجلى سريعة يطوى فـــي كـــل منهـــا بصره وبصيرته على حسن المرْآىِ المنكفء على هيام ولوع ، فـــإن العصر الأموي بما اتسم به من حرية كفلـــت التقـــاء الرجـــل بـــالمرأة ،وبحبوحة في تبادل الأحاديث، بل الاستماع إلـــى بعضـــهما الـــبعض

١) اتجاهات الشعر في العصر الأموي د صلاح الدين الهادى صـــ ٥٥ .
٢) الشعر الأموي ، د محمد فتوح أحمد ،١٣٣ ، دار المعارف طـــ ١٣٣ .

كلاماً، أو يسمعون ما تجيش به أنفسهم غناءً وشدواً وقد استمتع عمر " بما استمتع به شباب مجتمعه من متع في جو حاز الكثير من الحرية الاجتماعية ، ووهب حياته للحب واتخذ منه متعته الكبرى ولعبته المفضلة (١) "

وإذا كان العرجى وابن قيس الرقيات قد ساويا ناحية الحرية والالتقاء ، إلا أن عمر بن أبى ربيعة استكمل الناحية الفنية ؛ إذ حوت قصائده عناصر الحكى من شخصيات رئيسة وثانوية ، وحوار، وعقدة ، وحل ، في أسلوب مميز ونسق مبدَع ؛ إذ كانت المرأة شغله الشاغل ، ومن يحب شيئاً يبدع فيه ، وقد كانت ملاحقتها هدفه الذى لا يحيد عنه ، بل يجدُّ في السعي خلفها " ويضحى بنفسه من أجلها، لا يتحرج من لوم الناس ، أو غضب الله ، مادام هو يسير في طريقها فهو طريق مقدَّس لا يستطيع الابتعاد عنه ، ولا يجد حرجاً إنه ظامئ إلى المرأة ، وظمؤه هذا لا ترويه واحدة وإنما يرويه السعي خلف كل امرأة ، فالسعي هدفٌ في حد ذاته ؛ فهو لا يكاد يصل إلى واحدة حتى يبحث عن أخرى ، وهو لا يهدأ ولا يتوقف ، وهو عاشق هاوٍ لاهٍ متيم بالنساء يرى الفرب من المحبوبة جنة الخلد يقول :

والله والبيت العتيق لقد ساويت عندي جنة الخلد

وهو دائماً في حالة استقبال وتوديع ، فما يكاد يستقبل العراقية حتى يودع الحجازية أو يتركهما ليكون في حضرة الشامية ، والمحبوبات يعلمن عنه ذلك ويرتضونه ؛ لحبهن له أو رغبتهن في الإشادة بجمالهن من فتى قريش الأملح والأشهر . .

١) تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي ، د يوسف خليف صـ ٧٦ نهضة مصر– الديوان صـ١٢١

وأبياته في المرأة ثرية بالمشاعر، فقد يشع منها البهجة ، و قد يكمن فيها شارات للفراق والألم والفشل ، وكأنها لقطات حزينة في الصور البهية التي يحرص عمر على رسمها بكلماته وأرجع ذلك إلى الحزن [١]" فقد أصابت الحجاز – منذ مقتل عثمان –محن قاسية كثيرة ، من حروب وفتن وبطش من جانب الأمويين – كموقعة الجمل ، وصفين، والحرة ، وكربلاء، وحصار مكة أيام الزبيريين – طبعت حياة الحجازيين بطابع من الحزن العميق والشعور بالفجيعة لفقد من أودت بهم تلك الحروب والفتن ، حتى لقد شاع بينهم حينذاك فن خاص من فنون الغناء هو" فن النوح " يؤديه كبار المغنين والمغنيات ويعبرون فيه عن هذا الشجن العميق الذى كانت تنطوي عليه نفوس الحجازيين رجالاً ونساءً على السواء، وربما هذا الفن هو الذى فرض الأوزان الطوال ؛ من الطويل والبسيط والكامل وغيرها إذ يناسب النواح رجع الصوت وتكراره مما يتناسب مع الناحية النفسية الحزينة ، تلك الناحية النفسية التي توافقت مع الظروف الاجتماعية ؛ فمع أخطاء الأمويين وخطاياهم ، كانوا كرامًا مع الحجازيين ؛ إذ تركوا لهم الحرية في الكسب، بل وأغدقوا عليهم الأموال ، وضمنوا لهم التقلب في اللهو، والانشغال به ؛ ليصرفوهم عن النظر في شئون الحكم ، فطبعت الحجاز وأهلها بطابع الدعة والرفاهية والتنعم " فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم ، صاروا إلى نضارة العيش ، ورقة الحاشية ، واستجلاء الفراغ[٢] "

١) في الشعر الإسلامي والأموي – الدكتور عبدالقادر القط – مكتبة الشباب – ١٩٨٤ ، ٢٢٤.
٢) مقدمة الأغاني جـ١ طـ دار الكتاب صـ ١٣

فشاع الغناء وكثُر القائمون على توفير أركانه .. من مجالس وصحب طريفة ، وكلمة منغمة جميلة ، ولحن مميز ، وصوت ملائكي . وقد راج الغناء والموسيقى نتيجة " ذلك السيل الدافق من الرقيق الذى أخذ طريقه إلى عواصم الدولة في مكة والمدينة ودمشق وغيرها ، وقد جلب هذا الرقيق معه تراث أقوامه في فنون الطرب والألحان ، ومزج هذا كله بما كان معروف لدى العرب من أوليات الحداء والترنم ، واستطاع بهذا وذاك أن يصل إلى نمط غنائي ولحني متميز [١] " ومن أكثر الأشعار التي غنيت آنذاك أشعار" عمر بن أبى ربيعة" الذى استحسن شعره القاصي والداني حتى إن الفرزدق – وهو من هو –قال عن شعره : هذا والله الذى طلبته الشعراء فأخطأته وبكت على الديار [٢] وقال عنه د "طه حسين " إننا لم نعرف شاعراً عربياً أموياً أفتن في الغزل افتنان عمر"[٣]

١) الشعر الإسلامي والأموي صـ١٣٥ .

٢) الأغاني ج ١ صـ ١٢١ .

٣) ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى صـ٦١ .

الفصل الأول

عمر بن أبى ربيعة .. حياته ونشأته

هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يُكنى أبا الخطاب ، ينتمى إلى أسرة أرستقراطية شديدة الثراء ؛ إذا كان أبوه "عبد الله" تاجراً موسراً ثم توفى وعمر صغير، فنشأ في حضن أمه "مجد" سبية من حضـــرموت ، ويقال من حمير، أنشأته في ترف ورعاية زائدة ، فنشأته المترفة جعلته ممهداً لتلقي وبث الفيض الغزلي حتى قيل لاغرو "غـــزل يمـــان ودل حجازي " [١] .

ولد عمر بن أبى ربيعة يوم مقتل عمر بن الخطاب حتى قيل أي " خير رفع وأي شر وضع [٢]". كان عمر ملتصـــقاً بأمـــه ومجتمعهـــا النسوي فطالع أسرارهن وخفاياهن ؛ يقول البغدادي: " وكان لقيام هـــذه السيدة على تربية ابنها، سواء في حياة أبيه أو بعد مماته أثر عميق في نفسيته ؛ فقد نشأته نشأة كلها دلال ، وتصادف أن عمر كـــان جمـــيلاً ، وكانت هي غريبة ؛ فاشتد ولعها بابنها ، وكانت تبالغ في هيئته وزينته وكل ما يتصل به " [٣]

وتمتع بصحبة المترددات على مجلس جدته المعطر؛ إذ كانـــت جدته بائعة للعطور؛ فشب أنيق الرائحة والشكل ، مما أملكـــه مخزونـــا نوعياً مميزاً بالإضافة إلى ثرائه ووسامته ووضعه الطبقى ؛ إذ تفـــرَّغ للهو واقتناص اللذات ....وقد ظل يعيش حياة اللهو والعبث ، يبذل المال للمتعة واللهو، و يعجز عن حصدهما ، حتى إن امرأة تمنعت عليه من

---

١) الأغاني ج ١ صـــ ٦٦ .

٢) خزانة الأدب طـــ بولاق جـــ٢ ٤٢٠ ، والأغانى طـــ بولاق جـــ١ / ٢٢١ / ٢٥٨ .

٣) شذرات الذهب ، ابن العماد الحنبلى جـــ ١ ،صـــ ١٠١ .

قومه وتدعى " كلثم المخزومية " فاشترى عبدة وبعثها رسولاً إليها لتسهيل لقائهما ووعدها الحرية إن أوصلت لها رسالته ؛ إذ كان أسلوب إرسال الرسائل شائعاً " ألكنى إليها بالسلام" فكانوا يدعمون الرسول بحكاية أو معلومة لا يعلمها إلا المتحابين" ما قالت غداة لقيتها " وإرسال الرسائل كانت طريقة شهيرة وهى متصلة " بالبداهة بمغامرة غرامية "[١]

ونسب عمر نسب مميز ؛ ففي العموم قبيلة بنى مخزوم " ريحانة العرب " وفى محيطه الأسرى له شقيقان " عبد الرحمن " والحارث " ولا يذكر له شقيقات . وقد تزوج عبد الرحمن من أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق بعد وفاة زوجها طلحة مقتولاً في واقعة الجمل[٢] والحارث كان زبيرى الهوى حازماً كريماً معطاءاً حتى قال عنه عبد الملك بن مروان " إن أماً ولدت الحارث لمنجبة [٣]، بعد ما رأى من جوده وحزمه وكرمه كما كان يميل للنساء مزواجاً " شريفا كريماً ديناً وسيداً من سادات قريش [٤] ". كل ذلك انعكس على عمر فعاش لنفسه في منعة من أهله وعزهم وسطوتهم ، بالإضافة لمقوماته الشخصية، من محيا جميل يفتخر به قائلاً :

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر (٥)

ناهيك عن طوله الفارع كجده " ذي الرمحين " وفى الأغاني "

---

١) تاريخ الأدب العربي د بلاشير–ت– د إبراهيم الكيلانى صـ ٢٥٢ طـ٣ وزارة الثقافة ١٩٧٤م.

٢) مقدمة الأغاني جـ١ طـ دار الكتاب صـ ١٣.

٣) العقد الفريد جـ ١ صـ ٣٣– الأغاني جـ ١ صـ ٦٧ .

٤) الأغاني جـ ١ صـ ٦٦ .

٥) الديوان صـ ٣٣ –٢٦٤ .

حجت امرأة من بنى أمية يقال لها " أم الحكم " فقدمت قبل أوان الحـــج معتمرة، فبينما هي تطوف على بغلة إذ مرت على عمر بن أبى ربيعة في نفر من بنى مخزوم وهم جلوس يتحدثون وقد فرعهم طولاً وجهرهم جمالاً وبهرهم شارة وعارضة وبياناً.

كان متيماً بحيازة أطراف الجمـــال ؛ إذ كـــان يركـــب النجائـــب ،ويتطيب بالروائح ، ويرتدى المفاخر من الثياب " ويسبل لمته ، يلاقى النساء ويودعهن على هذه الحال وكان أعطر الناس وأحسنهم هيئة " [١] وعلى تهيامه بالنساء وتتبعهن كان يحوز خصالاً حساناً فكان كريمـــاً معطاً ، وقد يعلوه أصله الضارب بجذوره في الإسلام فيتمكن منه الغزل .. فيتصرف وفق رؤيته فها هو ذا يصدق إحداهن أربعمائة دينار عـــن حبيبها المقتَّر ، ويقول في ذلك

كفيت أخى العذرى ما كان نابه وإنى لأعباء النوائب حمَّال

أما استحسنت منى المكارم والعلا إذا طُرحت ، إنى بالمال لبذال[٢]

وهو على جرأته ذو خجل طبعي ؛ فلا يأتي ما يعيب ؛ روى قدامة بن موسى :" خرجت بأختي زينب إلى العمرة ، فلما كنت بســـرف لقينـــي عمر بن أبى ربيعة على فرس فسلم على ، فقلت له إلى أيـــن ؟ آراك متوجهاً يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لى امرأة من قومي برزة الجمال ، فأردت الحديث معها . فقلت : هل علمت .إنها أختي !! فقـــال : لا ، واستحيا وثنى عنق فرسه راجعاً مكة " [٣].

وهكذا عاش يتفقد اللذات في مظانها حتى بدأ الشيب يغزو

---

١) الأغاني جـــ١ صـــ ٢٦٣ط دار الكتب .

٢) الديوان ٤١٤ .

٣) الأغاني ج١ صـــ ٩٨ – ٩٩ .

مفرقه ثم حل به ما يحل بالأحياء كافة ففرض على العربة المسرعة التخفيف من سرعتها وكبحت الجوامح بشكل آلى " فماء الشباب لم يستمر تدفقه في عروق الشاعر حتى أُخريات حياته كما كان يظن عمر، وإنما بدأ هذا التدفق في الانحسار شيئاً فشيئاً ، وبدأت القوى تتراخى، والعزم يفتر ، والشيب يلوح ، والقامة تنحني، فنطق قائلاً :

لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولا أَعشق، فاليوم صرت إلى مدارة الحسان إلى الممات " (١)

وقد حاول أن يلتمس الشباب وإيابه فلم يجد لذلك سبيلاً وتوافقاً مع شعور عال بالذاتية قال :

ليت الشباب بنا حلت رواحله وأصبح الشيب عنا اليوم منتقلا
أودى الشباب وأمسى اليوم يخلُفُه لا مرحبا بمحل الشيب إذ نزلا
ما بال عرسى قد طالت مطالبتى أمست تجنى على الذنب والعللا (٢)

وهو هنا يئن من تلك المرحلة وما فرضته عليه من مستلزمات وقيود ؛

إذ دثرته بالهدأة والسكون وخلّته عما اعتاده من انطلاق ونزق . وعبثاً حاول التخلص من ذلك الدثار الزمنى لكنه أحكم قبضته عليه " فقد خانه الأمل ، وخلاه الشباب ، وأخذ المشيب في هدَّ تلك القوى ، وهدم ذلك السرح ، وأخذ النساء يتراجعن ضاحكات منه ساخرات به ، وبدأ الدهر يبنى دولة جديدة للحب ويشيد حصناً ثابتاً للغرام فأنشأ فتياناً غير الفتيان وعذارى غير العذارى " (٣)

---

١) الأغاني جـ ١، صـ ٨٠

٢) الديوان صـ ٣٦٢ .

٣) حب ابن أبى ربيعة وشعره، د زكى مبارك صـ ٧٤ " بدون بيانات" .

عمّر طويلاً فتوفى وهو قرب السبعين، ويقال حين حضرته الوفاة حزن ابنه حزناً شديداً ، فضحك عمر وقال: أو تخشى على أبيك من الذنوب ؟ قال : نعم، فأقسم له – عمر – إن رداءه لم يرفع إلى حرام .

مما يدل على نفسه المطمئنة بالإيمان وأن هذا الغزل استجابة طبعية لنفسه المرهفة لنشأته ، ومواءمة وتوافق مع ظروف العصر . ومما يؤيد ذلك اعتراف عمر نفسه .

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه لاحظ لى فيه إلا لذة النظر (١)

فالمعروف أن البيئة الحجازية كانت تنضح بالإيمان ثم تغير الحال وصار شاعرهم ينشد

ليتني في المؤذنين حياتي إنهم يبصرون من في السطوح

فيشيرون أو نشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح (٢)

يقول عنه حنا الفاخورى في جماع القول :

" إنه ثرى جميل ، سهل المعاشرة ، بطىء الغضب ، طريف اللسان ، ملح النكتة والدعابة ، فحفلت مجالسه بأنواع اللهو ، وتهافتت عليه النساء وعلى مجالسه ، وكن في الحجاز يضفن إلى حب الأدب ميلاً شديداً إلى الغزل والمرح . وفضلاً عن ذلك كله ، كان عمر مرحاً ينظر إلى الحياة من ناحية السرور فيها ولا يرى في الحياة إلا متعة مادية ، يزحف في تتبعها وجمالها يتهالك عليه مع رفاقه ، وقد أعيا الخلفاء والعمال وأهل النساء وذويهن " (٣)

---

١) الديوان صـ٢١٩ .

٢) الديوان صـ٣٧ـ .

٣) تاريخ الأدب العربي حنا الفاخورى ط٦ بيروت لبنان المكتبة البوليسية

ولا شك أن ولوعه بالغزل لفت أنظار الجميع وخاصة الصفوة من المتغزليين ، وها هو جرير يقر بالتفرد في الشعر الغزلى لعمر بن أبى ربيعة وجرير من هو في الشعر الغزلي " قال له أحدهم : يا أبا حرزة ، إن شعرك رفع إلى المدينة ، وإني أحب أن تسمعني منه شيئاً ، فأجابه جرير : إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومى ، يعنى ابن أبى ربيعة ، وقال حينما سمع شعره :

" هذا شعر تهامي إذا أثمر وجد البرد "[١] وفى هذا الخبر دلالة إقرار بذلك التخصص الذى بلغته" مدن الحجاز في فن الغزل خلال العصر الأموي " [٢]

ونظراً لإغراق الامويين –بالسياسة الأموية – الحجاز بالأموال والعطايا ، وكما هو معروف عن سلطان المال على الجمال ، والحب قاسم مشترك بين الجمال والفراغ ،

وكما قال الفلاسفة : الحب حركة النفس الفارغة ... نهل عمر بالفراغ .. من الحب ..فتعددت معشوقاته ، فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية ، وزينب بنت موسي الجمحية ، وليلى بنت الحارث البكرية ، والنوار أم الحكم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وغيرهن ؛ فصرف شعره على التغزل بهن أو إظهار فتنتهن به ،ونجد عمر سلك مسلك الغزل وانتهج فيه نهجاً متفرداً " وإذا كان الغزل لغة الوجدان والعواطف التي يعبّر بها الشاعر عن مكنون مشاعره وأحاسيسه الدقيقة ، وهو يصف مفاتن حبيبته سواء أكانت تلك المفاتن

١) الأغاني جـ ١ صـ ٨٦.
٢) الشعر الأموي صـ١٣٨.

حسية ــ الجمال الحسي ــ أم معنوية" [١]

هنا تفرد عمر بن أبى ربيعة في شعره بأُحادية الغــرض الــذى أوقفه على الغزل ولا يزاحمه غرض آخر بالمنهج العمرى لكن تعددت المُتَغزل بهن ، لذا هو صاحب مدرسة هو إمامها ولم يلحق به تابعوه، وبشعره أُثبت التفوق لقريش على سائر العرب ، حيث العرب أقرت لها بالتقدم في كل شيء إلا الشعر ؛ فلما نبغ عمر بن أبي ربيعة، أقرت لها بالتفوق فيه ، ولم تنازعها شيئاً [٢].

وقد رسم القرشيات وغير القرشيات في ألوان مادية حسية تكاد – إذا صدق – تجلو لنا جانباً من النساء المترفات في القرن الأول الإسلامي – روى الوليد بن زيد حين قال لأصحابه ذات ليلــة أي بيــت قالتــه العرب أغزل ؟ فقال بعضهم قول جميل :

يموت الهوى إذا ما لقيتُها ويحيا إذا فارقتها فيعود

وقال أخر : قول عمر بن أبي ربيعة

كأنى حين أُمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغي ما ليس موجودا-

فقال الوليد : حسبك والله بهذا! ! بل إن جميــل نفســه قــال عنــه : " هيهات ، يا أبا الخطاب لا أقول مثل هذا ســجيس الليــالى والله مــا خاطب النساء مثلك أحد "[٣]

---

١) المرثاة الغزلية في الشعر العربي د عناد غزوان :صـــ ١٠ الطبعة الأولى ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٤ م .

٢) الغزل ج ١ ٦٦ محمد سامى الدهان جـــ ١ دار المعارف.

٣) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة صـــ ٢٥ .

الفـــصل الثـــانى

الصورة الشعرية الغزلية

" إن الغزل عاطفة قوية رسمها من أحسّ بها ومـــن لـــم يحـــسّ وتجمل بها من لم يكن جميلاً في هذا الباب ، فتزين بمحاسنها ليشـــتهر عنه الذوق والرقة لعله يروج في قومه "[١]

يستعمل الشاعر الصورة للتعبير عما يجيش بخاطره ، يستكشـــف بها تجربته، ويتفهم بها أبعاد ها ، ويمنحها النسق والنظام اللذين تفتقـــر إليهما في مراحلها الأولى "[٢] ورث عمر عن أمه أرضـــاً بـــاليمن ، وكان موسراً ؛ فأغدق على نفسه وعلى لهوه ، لا سيما ما يتعلق بالمرأة ، وها هو ذا يعطى مائة دينار للرسول الذى بشَّره بزيارة "فاطمة بنـــت محمد بن الاشعث الكندية " وأرسل لأمها بخمسمائة دينار أخرى[٣]

ما قبل النص : شاع الغناء والترف في البيئة الحجازية وامتثـــل الحجازيون لما فرضه الأمويون من نهج الانصراف إلى اللذات واللهو والبعد عن التفكير في الحكم . فشاع الغزل اللاهى ، ولـــم يســـلم منـــه الأشراف "كابن عتيق" سليل أبي بكر الصديق ، أو " العرجي "ســـليل عثمان بن عفان ... فالظروف توفرت للشعراء ، والمنـــاظرين لعمـــر الذين ضمهم العصر وعاشوا الظروف السياسية والبيئية ،

إذ سحبت الأجواء السياسية المظلة على كل من يتنفس في ذلـــك العصر، إلا أن ثمة سؤالاً يتبادر إلى الذهن : ما الذى دفع عمر إلـــى سلوك مذهب يكاد يكون أُحادياً ولمَ لم يكن له أشباه ولا نظائر، أو حتى

---

١) – الغزل ج ١ محمد سامى الدهان صـــ٥ .

٢) الصورة الفنية في شعر لبيد ،رسالة ماجستير، صلاح مصيلحى على عبد الله ،صـــ ج إشراف د.النعمان عبد المتعال القاضى كلية الآداب ج القاهرة

٣) الأغاني طـــ دار الكتب : جـــ ١ صـــ ٨٩ – ٩٠

رواد مشوا على دربه ونهجوا نهجه !!!؟ .

وأرى أن ذلك مرجعه أسباب عدة .. منها .. – نشأة عمر المترفة ، وفقده أباه ، وغمر أمه له بالحنان، وغشيانه مجالس النساء، واطلاعه على شواردهن وواردهن زرافات وفرادى – الترف والبذخ الذى شبَّ فيه، فعمر نشأ مترفاً لا يرعى إلا حاله وبهاءه، ولاطلاعه على دخيلة النساء، وتشبعه بمواقفهن وفكرهن ؛ يعاملهن كما يبغين ، لذا فهن يتكالبن عليه ؛ إذ رأت كل واحدة في تشبيبه بها وحديثه عنها.... إطلالة على عالم الرجال من كوة تبغاها ، ألا وهى : تشبيب فتى المدينة بها ، وهذا تبعاً لثقافتهن فخر ما بعده فخر ،ولا سيما أن غزله فريد ، إذ يتسم " بصدق اللهجة ، وصفاء الطبع ، ورقة التعبير وحسن الاعتذار ، وإجادة التمثيل لنفسه ولنفس الجماعة التي عاش بها في ذلك العصر"[١] .

إن عمر شاب جميل المحيا ، واسع الثراء ، ممتد الشهرة ، كل ذلك ثابت له ، وقد يقاسمه فيه غيره . ونظراً لشيوع أشعاره وانتشارها كَثُرَ التفاف الأصحاب حوله يلتمسون صحبته، ويستمعون شعره ؛ فها هو ذا ابن عباس يسأل عن خبره قائلاً : هل أحدث المغيرى بعدنا شيئاً " [٢] ؛ لشغف المجتمع بنتاجه الإبداعي ورغبة الرجال أن يذكرهم عمر في شعره أو يسجل عنهم حادثة أو حديثاً ابتغاءً في الشهرة " وإذا كان الرجل العربي مشغوفاً بحب الغزل ؛ لأنه صافى الذهن متوقد الطبع رقيق العاطفة ، فالمرأة العربية أكثر شغفاً به ؛ لأنها أكثر صفاءً وأشد توقداً وأقوى حساسية [٣]

---

١) – مذهب عمر بن أبى ربيعة في الغزل وتطوره الفنى صـ المقدمة ب .

٢) – العقد الفريد ط دار الكتب صـ٤٧١ – الديوان صـ ١١ .

٣) – الغزل عند العرب حسان أبو رحاب صـ ٧٠ مطبعة مصر طـ١ ١٩٤٧.

لذا شغف نساء عصره به ، والتمسن حضوره والتقاءه، يتطلعن لنظمه لأبيات في حسنهن ، ورصد حركاتهن ، بل كنَّ يحتكمن إليه في مسابقات جمالية؛ كما فعلت "عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين " فقد روى أنهما " احتكمتا إلى عمر في أمر جمالهما "[١]

فعمر شاعر الحسن والجمال الخبير به والمقيد له في منجزاته ، وعمر صنو الجمال يتبعه، يطربه فيثنى عليه " وإذا كان حب الثناء من طبيعة الإنسان فهو في طبيعة المرأة أقوى وأكثر ، فالغيرة تدفعها إلى أن تكون خيراً من غيرها ، أو لدلال يدفعها إلى أن يكون حظها من الجمال لا يدانيه حظ "[٢]

ولا شك أن صبوة الشباب والترف والمزاج الخاص لعمر كان باعثاً على سلوكه مسلكاً ما، وعمر وإن كان ظهر بمظهر المنغمس في المتع ، المصور للذات المغامرة ، إلا أن أحد الباحثين رأى أن عمر كان متأثراً بالمناخ العام المسيطر على الحجازيين، وأرجع إلى ذلك وجود هنات حزن في شعره باعثة له للنص عليها ، وإن كان عمر امتاز بميزة فقد يتبدى الحزن في شعره بشكل جلى وكامن وراء إظهار المتعة والبهجة في شعره" يقول : فلا شك أن وراءه أيضاً محاولة لنسيان هذه الفجائع الأليمة التي ألمَّت بقومه، وبالحجازيين عامة ، وليس غريباً حينئذ أن تنتهى كثير من قصائده بالحديث عن الفشل أو الفراق أو تتسلل وسط صوره المشرقة لمسات قاتمة لها دلالتها على ما تنطوي عليه نفس الشاعر من حزن دفين يجمع بين الحب والموت "[٣] وقد

١) – الأغاني جـ ١٦ صـ ١٥١.

٢) الغزل عند العرب حسان أبو رحاب صـ ٦٩- ٧٠ .

٣) في الشعر الإسلامي والأموي ٢٢٥ د. عبد القادر القط.

يظهر حزنه – لتركيبته النفسية – في شكل استعلاء وسلوى انغمسا – ظاهرياً – في المغامرات ، وإن اتخذ الفخر كخط دفاع لإخفاء نفسه الجريحة الفارَّة من الحزن العام المسيطر على الحجازيين بل إن عمر، يظهر الخصومة بين الحجازيين والأمويين ، وها هو ذا حينما ينهاه "عبد الملك بن مروان والحجاج عن التشبيب بفاطمة ابنة الأول ".. ينتهى ففي الأغاني :

" لما قدمت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان مكة جعل عمر بن أبى ربيعة يدور حولها ويقول فيها الشعر ولا يذكر اسمها فرقاً " من عبد الملك بن مروان ومن الحجاج "؛ لأنه كان كتب إليه يتوعده إن ذكرها أو عرض باسمها " .[1]

البناء الفنى... انعكست حياة عمر النشطة وإيقاعها السريع على منجزاته الأدبية، فكما ظُللت حياته بالوثوب والانتقال ؛ نجد إبداعه يقفز بين الأغراض المختلفة فقد يجمع الوقوف على الأطلال والغزل ثم الفخر بلا خطوط جامعة واضحة ظاهرة وإن كانت تتكفء على هذا الحزن القابع في قاع النفوس " يقول :

فبعضَ البعاد يا أُثيل . فإنني ... تروك الهوى . عنى الهوان بمعزل
أبى لى عرضى أن أُضام .وصارم ... حسام ، وعز من حديث وأوَّل
مقيم بإذن الله ، ليس ببارح ... مكان الثريا ،قاهر كلَ منزل
أقرت معدَّ أننا خيرُها جَدى ... لطالب عُرف أو لطيف محمَّل
مقاويلُ بالمعروف . خُرْسٌ عن الخنا ... قضاة نفصل الحق في كل محفل
أخوهم إلى حصنٍ منيع . وجارهم ... بعلياء عزُ. ليس بالمتذلل
وفينا إذا ما حادث الدهر أجحفت ... نوائبُه . والدهرُ جَم التنقّل

١) الأغاني ج ١ صـ ١٤٢.

لذى الغرم أعوانٌ . وبالحق قائل وللحق تبَّاع . وللحرب مُصطل
نقلل أنياب العـــــدو . ونابُنـــا حديدُ ، شديد ، روقه لم يفلل
أولئك آبائى وعـــــزّى ومعقـــلى ليهم أُثيل ، فاسألى أي معقل (١)

فها هو ذا يتناقل بين الوقوف على الأطلال والغزل ثم يقر ثابتـــاً على الفخر وقد يزاوج بين إباء رفض " نعم "والفخر بقبيلته في تصميم شعرى، ذلك ظاهره ، أما باطنه فقد نضح بمهاجمة الحكام والأمويين والفخر بقومه والحجازيين (٢)

إما تعرضى عنا وتعدى بقول مماذق ملق كذوب
فهلا تسألى أفناء سعد وقد تبدو التجارب للبيب

وأرى ... أن ثمة تقية محمودة، فهو يؤثر الهـــدأة والبعـــد عـــن المجاهرة بالعداوة للأمويين ، بل يتخذ من الغزل وسيلة لبـــث رســـالته الفخرية كما قال آنفاً :

فبعضَ البعاد يا أُثيل . فإننى تروك الهوى . عنى الهوان بمعزل

أبى لى عرضى أن أُضام .وصارم حسام ، وعـــــز مـــن حديـــــث وأوَّل وفى حدة انفعاله وعتابه وفخره يشير في القصيدتين للحقيقة الثابتة " الموت " يقول :

ونعلم أننا سنبيد يوماً كما قد باد من عدد الشعوب

وقوله :

وفينا ،إذا ما حادث الدهر أجحفت نوائبه . والدهر جم التنقل

---

١) الديوان صـــ ٣٧٣ .

٢) الديوان صـــ ٤٤ .

وقوله[١]

فإما تعرضى عنا وتُعدى	بقول مماذق ملق كذوب
فكم من ناصح في آل نعم	عصيت. وذى ملاطفة نسيب
فهلا تسألى أفناء سعد	وقد تبدو التجارب للبيب
سبقنا بالمكارم فاستبحنا	قرى ما بين مأرب فالدروب
ونحن فوارس الهيجا .إذاما	رئيس القوم أجمع للهروب
نقيم على الحفاظ فلن ترانا	نشل ، نخاف عاقبة الخطوب

ففي صور متلاحقة يطلعنا على ما يجيش بداخله ، وبدت قدرته على التشكيل ؛ إذ صاغ تجربته " في نسق يحقق المتعة، والخبرة، ويستكشف بها موقف الشاعر من الحياة والكون، كما أن الصورة تدفع بالمتلقي إلى معايشة التجربة، وتخلق فيه التجاوب العاطفي بموضوعها. إن الصورة بهذا هي الجوهر الثابت والدائم في الشعر مهما تغيرت مفاهيمه ونظرياته سيظل الاهتمام بها على أشده ما دام هناك شعراء يبدعون ونقاد يحاولون تحليل هذا الإبداع "[٢]

وفى قصيدة أخرى ينتقل من الوقوف على الأطلال إلى الغزل ثم الفخر:

فبعض البعاد يا أُثيل .فإننى	تروك الهوى . عنى الهوانُ بمعزل
أبى لى عرضى أن أُضام وصارم	حسام، وعز من حديث وأول
مقيم بإذن الله ، ليس ببارح	مكان الثريا ، قتاهر كل منزل

١) الديوان ص٤٤ .

٢) الصورة الفنية في شعر لبيد، رسالة ماجستير، صلاح مصيلحى على عبد الله، صـ ج ،إشراف د . النعمان عبد المتعال القاضى كلية الآداب ج القاهرة

ويسترسل متغزلاً ، ثم مفتخراً ، إلى أن يقول :

أولئك أبائى وعزى ومعقلى إليهم أُثيل . فاسألى أي معقل

وفى قصيدة أخرى يقول بعد أن تغزل ووصف

أولئك قومى وجدك لا أرى لهم شبهاً فيمن على الأرض(١)

أذب وراء المستضيف إذا دعا وأضرب في يوم الهياج السنورا "(٢

ويستمر في فخره الذى حوى سمات شعره من لفظ ألق ،ومعنى متشعب، كان ذلك في فخره الشعرى وشعره الغزلي الذى تفرد بوجة الفخر الضمني بذاته من خلال الحديث عن الغزل.

وهذا المزاج الغزلي تفشى وشاع في المنجزات الأدبية آنذاك " فقد كان مزاجا مصقولاً هذبته مؤثرات البيئة المدنية المترفة كما عند عمر بن أبى ربيعة ، وعملت على تصفيته من أدران الجسد وشوائب المادة بواعث الدين والأخلاق وعوامل الإحباط والحرمان ،وقد استطاع النفوذ إلى داخل نفسية المرأة ، وسبر أغوارها ، والنفاذ إلى مكنون نفسها وإعطاء المجتمع مفاتيح ذلك؛ لذا كان عمر " أشد قدرة على استكناه نفسية المرأة في شعره على استكناه نفسيته أو التعبير الدقيق عنها "[٣] فشعره يمثل تبياناً لأحاسيس النفس الإنسانية وما يعتورها حين تعلق شيئاً تفهمه وتجيد التعبير عنه .

وأسلوب عمر معروف إذ يُفاجئ صاحبته التي تتباغت ، وتهلع ، وتدهش ، وتلتاع وتأخذ في لومه تقريعاً وتوبيخاً .. ثم تهدأ وتسمح وهذا الأسلوب اشتهر في قصائد في ديوانه صـ ١، ٦، ١٦٠، ٣٣٠

---

١) الديوان صـ ٣٩٥ – ٣٠٤ .

٢) الديوان صـ ٣٠٤ .

٣) تطور الغزل شكرى فيصل بين الجاهلية والإسلام صـ ٤٥دار العلم للملايين طـ ٥ .

وهذا الخط القصصي الذي التزمه عمر بن أبي ربيعة سواء أكان حقيقياً أم تخيلياً .... ونجد اهتمامه بالتفاصيل حتى الألوان ؛ إذ يقول:

فقامت إليها حرتان عليهما كساءان من خز دمقس وأخضر(١)

فقد أفاض في الوقوف على اللون ،ودرجته ،وانعكاسه؛ مما يدل على حرصه وبالغ اهتمامه بالمرأة وآلاتها وأحداثها، فعكس ذلك قدرة فنية ، ومهارة تعبيرية، أجادها وأتقنها ؛ بل قد يعهد إلى نحل أو قص أحاديث طوال ، على لسان رَاغباته وهو ما يتفق مع أصل نشأته، فهو سلسال أعرق عائلات قريش مجْداً وجاهاً في الجاهلية والإسلام ، فأبوه كان يلقب "بالعدل " ؛ إذ كانت قريش تكسو الكعبة عاماً وهو يكسوها عاماً ، وقد ولاَّه رسول الله إحدى ولايات اليمن" (٢)

ونشأ عمر يتنقل في ربوع ملاعب الحجاز ومواطن لهوه ، وما عُوِّده من مصاحبة الأرستقراطيات ، والُهيام بهن ، وبراعته في تصوير هُيامهن به ولمَ لا ....وهو الشاب القرشي الثرى، الذى بذل خمسة آلاف للغريض ليُتغنى أمام عائشة بنت طلحة بما نظمه فيها مكنياً اسمها خوفا من بنى تميم ، وهو رجل جميل المُحيا، حسن اللفظ، بهي المنظر، كل تلك الخصائص والصفات تشظت في إبداعه فصبغته بصبغة استقصائية " إذ نرى المزاج المبدع مزاجاً تحليلياً لا يقنع من النسيب باللفتة العابرة ، أو المقدمة العارضة ، أو الأبيات القليلة المنفردة ؛ بل يَرحب احساسه بالمرأة ، وتمتد أنفاسه العاطفية ، وتطول بها حبال القول حتى تنبسط على رقعة القصيدة بأكملها ، ولا يكتفى الشاعر بذلك حتى ينتقل بهذا الإحساس من قصيدة إلى أخرى ومن موقف شعوري إلى آخر ، فلا

١) الديوان صـ ٩ .

٢) الشعر الأموي ١٤٣. .

يعود التفرد والاستقلال سمة لقصيدة واحدة أو قصائد ذوات عدد ؛ بل يصبح مؤشراً إلى اتجاه غزلي يتميز به الشاعر ويكاد يُقصر نشاطه الفني عليه "[١]

وللرفه الذى يحيط بعمر والليونة دورهما ؛حيث لانت وظرفت حياته ، فلان لفظه وطرُف تعبيره وملُح أداؤه التعبيرى، يقول [٢]

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً وأهلاً وسلاً بالحبيب المتيم

فقد كانت المرأة تذهب لتحج في موكب مهيب يلفت الانتباه لا شخصيات مستترات " " فمثل هذا المشهد يعكس لنا هذا الجو الحضاري الذى كان سائداً في ذلك الوقت " [٣] وقد عبر عمر عن تعلقه بالحاجات ،وأثرهن فيه بشكل طريف حين قال :

وخرجت أبغى الأجر محتسباً فرجعت موفوراً من الوزر

والحج كان موسم الاتقاء بين الجنسين فقد قال أيضاً العرجي عن ذلك

نلبث حولاً كاملاً كله لا نلتقي إلا على منهج

فى الحج أن حجَّت وماذا منى وغيره إن هي لم تحجج

أما عمر فهو يقص التواصل القوى بينه وبين الحاج "[٤]

أومت بعينيها من الهودج لولاك في ذا العام لم أحجج

وربما هذا الإحساس المتضخم بالذات ، جعله أنفاً في وْجده وهُيامه فلا يتزلل أو يتوسل ؛ بل يتحدث في صلف وغرور غير محببين، في الوجد والغرام قائلاً [٥]

---

١) الشعر الأموي صـ ١٣٧ .

٢) الديوان صـ ٥٢٠.

٣) الشعر الأموي .

٤) الديوان ص١٢٢.

٥) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسى في العصر الأول د عزيز فهمى دار المعارف./ صـ ١٠١ ١٠٢.

إن تبخلى لا يسلى القلب بخلكم وإن تجودى فقد غنيتنا زمنا

تعلَّم صاحبنا أساليب الغرام من تجاربه الكثيرة المتنوعة، فهو رجل عرك الحب ، وامتحن الطبائع ، ولقنته النساء دروسه " [١]

خليلى إن باعدت لانت وإن ألن تباعد فما ترجى لحرب ولا سلم

وها هو ذا ينزل إلى سوق الغرام مزوداً بالتجارب يبيع الحسن ويشتريه :

وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا [٢]

وقوله :

إن كفى لك رهن بالرضا فاقبلى يا هند قالت قد وجب[٣]

يُدل بجماله، ويغرى بماله ، فإن أفلت منه صيد " ففي الصبر عمن لا يؤاتيك حاجة " وإن ظفر فهو كالنحلة يطير من وردة إلى وردة ، يرتشف من كل وردة حلاوتها، ثم يطير إلى غيرها . بعد أن يستوفيها وصفاً من طيب رائحتها ، نعومة بشرتها ، ويصف عينيها ووجنتيها أنفها وخصرها ساقيها وكعبيها ، صورها منفردة وهى في صحبة أترابها، وشقيقاتها أو النسوة وهى في كل الأحوال بزتهن جمالًا وبهاء ونرى " عنصر القصص والنعت من الطراز الذى يدعو السامع أن يضفىو يتفهم قبل أن يهتز ويرقص"[٤] تأثراً بمتابعة أجزاء قصته في تسلسلها.

---

١) الديوان صـ٤٨٨ .

٢) الديوان صـ ١٠٠ .

٣) الديوان صـ٢٨ .

٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١الدار السودانية الخرطوم طـ ٢١٩٧٠ بيروت صـ٣٦٨

علق جرير على شعره قائلاً : هذا شعر تهامي إذا أنجد وجد البرد ." [١] وقال على أبيات أخرى سمعها ..إن هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه ، وأصابه هذا القرشى " فبكثرة علاقاته وتناقله بين النساء خبر النساء، وعلم أدواءهن . وصار طبيبهن .حتى إنه يهدد بالانسحاب لوما وصلته محبوبته قائلاً :

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته فالسلام على أُخرى " [٢]

وعمر لإحساسه بالأنا يستشعر العظمة في ذاته ، ويوصى الشباب بها وآلا يتهاونوا بل ينصح الشباب بحتمية التمكن من أنفسهم في حبهم

لا تجعلن أحداً عليك إذا أحببته وهويته رباً [٣]

وعمر التزم نهجاً فريدا ونظماً مغايراً عن المألوف ، وقد أعجب بشعره أساطين الشعر، كالفرزدق والأخطل .

١) الأغاني ط١ صـ ٨٦.

٢) الديوان صـ ٤٩٢.- ١٩٢

٣) الديوان صـ ٦٩.

سمات شعر عمر

** غلبة الحوار..... يشيع في شعر عمر الحوار ، ويتبدى جلياً في مختلف قصائده؛ مما يدل على ثرائه اللغوي ، واقتداره الأدائي ، وكأن الحوار يعينه على سرعة تصوير اللحظة ، ونقلها كما هي – سواء أكانت حقيقية أم متخيلة، فهناك اقتدار بارز في وصف نوازع المرأة وطباعها ، وأساليبها في المنع والمنح ، الإقبال والإحجام ، وتحريك المحبوبة في أبياته بما يتناسب مع أنوثتها كحركتها في بيتها بما يتلاءم مع طبيعتها [١] ؛ لذا يشيع في جملته الشعرية قالت ، قلت ؛ حتى أثنى عليه "جميل بن معمر" الذى عقّب على قصيدة لعمر يغلب عليها الحوار قائلاً مُفضلاً له على نفسه : – " لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد[٢] " حتى إن عمر يعرف تلك المزية في شعره فيقول لرجل قابله :– يا ابن أخى:– قد سمعتني أقول في شعرى ، قالت لى ، وقلت لها ، ويعقد أحدهم مقارنة "بين لامية عمر" "ولامية جميل" فيقول : " لو ان جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأُرتج عليه ، وعثر كلامه به [٣]"

ولقد اشتهر عمر بالحوار؛ حتى علق الفرزدق على قصيدة بناها عمر على الحوار قائلاً " لا تحسن والله الشعراء أن يقولوا مثل هذا النسيب ، ولا أن يرقوا بمثل هذه الرقية" ، فالحوار وإن كان موجودا عند الشعراء السابقين " وورد في أشعار بعضهم دون أن يقصدوا إلى

١) الديوان صـ ٦٩– ١٧٠.
٢) الأغاني طـ ١ صـ ٣٧
٣) الأغاني جـ ٢صـ ١٣٤

ذلك قصداً . فإن عمر بن أبى ربيعة قد قصدهً وجعله قوام فنه الشعرى فبسط فيه القول ، وألقى عليه طلاوة وبلاغة لم تجتمعا لدى غيره من الشعراء [١]

المزاوجة بين المادية والروحية

يصف عمر محبوباته مزاوجاً بين الحسية والمعنوية، وها هو ذا حينما تحتكم إليه سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة أيهما أجمل ؟ فيحكم لعائشة بالجمال ولسكينة بالملاحة ففاخرت سكينة أنها الأجمل لفهمها أن الملاحة تنتج عن الجمال الباطنى الذى يضفى ظلاله على المحيا ، فيتبدى البهاء، أما الجمال الشكلي فهو متاح بشكل أيسر وقد ينص على الجمال الجسدي كما قال :

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة تخالها في ثياب العصر دينار "[٢]

فدقة الوصف ، وصواب المعنى ، وخفة الوزن وعذوبة الإيقاع سمة بارزة وغالبة على إبداعه . وقد تخلل عمر خصال المرأة وفطن إلى سريرتها ، ما تخفيه بين حناياها وما تبديه جوارحها ، وأجاد في التعبير عن كليهما فلو كانت هناك امرأة تحكى موقف علمها بزواج حبيبها ما أجادت كما أجاد في قوله [٣]

كذلك أدرك – لكثرة مخالطته النساء – أنهن سريعات الغضب والسخط ، قريبات السماحة والرضا – وعمر ينفذ داخل المرئيات فيرى الخفى من جمال المرأة ويعد أول شاعر – تقريباً – يجيد وصف خلجات

---

١) مذهب عمر بن ابى ربيعة في الغزل وتطوره الفنى – تيسير احمد مصطفى عودة – رسالة ماجستير ا د محمد زكى العشماوى ١٩٨٠ ص٢٢٧

٢) الديوان صـ ١٢٠.- ٢١٤

٣) سامى الدهان ٨٦

المرأة ونفسيتها واستطاع عمل توازن محمود بين إدراك الجمال الظاهرى والباطني وكأنه تمثل قول ابن قيم الجوزية " فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره " [١] وذلك لكثرة ارتياده مجالسهن لا يتخلف عنها يقول عن ذلك " ليس له مُتَّرك ولا محيص " [٢] وقد يأتي بأفعال متوالية في البيت ليثبت انفعال محبوبته وتوالي ردود أفعالها

فحيت إذ فاجأتها فتولهت وكادت بمخفوض التحية تجهر

فكأننا نقرأ ونشاهد انفعالاتها بين السطور ذلك الانفعال الممزوج بفرحة اللقاء .

حضور الإرث الثقافي

حضرت القدرات الذاتية في الإبداع والأداء التعبيري لعمر وتجلى ذلك في أدائه فعلقت الثقافي فيتعهد خطى الأسبقين ولكن بأسلوب طريف فحينما يتحدث عن الأطلال نجد التجديد بيناً فيصف الخيمة التي أقامت فيها المحبوبة أيام الحج ، أو يتحدث عن بقايا جلسة في أحد المجتمعات أو المنتزهات وينص على ما يعجبه في المرأة شأنه شأن سابقيه مع إضافة واضحة فرضتها الحياة الحضارية إذ المدن مسبوغة بالحضارة وحضارتها بادية" كأشد ما يكون التحضر في مثل هذه البيئة ، وفى مثل هذه الفترة من تاريخ الحضارة – على حد قول د يوسف خليف [٣]

١) روضة المحبين صـــ٢٢٢.

٢) الأغاني جـ٦ صـ ٣٢٧.

٣) تاريخ الشعر العربي صـ ٦٥.

اللين في الإسلوب

تنَّوَّع عمر في أساليبه وكلها كانت تحت مظلة الليونة إذ إنه يخاطب النساء، أو يتحدث عنهن وهذا يقتضى الليونة والرقة ، وكان يتوسل بكل ما هو متاح ؛ لتوصيل رسائله ، تارة يرسل المغنى يغنى لمحبوبته ما نظمه فيها ، كما بذل خمسة آلاف درهم للغريض؛ ليتغنى أمام عائشة بنت طلحة وكان قد كناها ؛خوفاً من بنى تميم

الوصايا

قد يبث عمر وصايا من خلال أشعاره في لغة سهلة بسيطة تدل على مدى فهمه ، واستعانته بفكر وسلوك طرفَيَّ علاقة الحب " الرجل – والمرأة " وكيف إن ثمة واعد لا تتخلف تحكمها ، ولكنه صاغ ذلك بلغة بسيطة منسابة ؛ فعلقت تعاليمه ووصاياه وحكمه بالذهن ، وقد خالط تلك الوصايا في سلاسة تورية، ورمز، ومجاز

لا تجعلن أحدًّا عليك إذا أحببته وهويته ربًّا[١]

وصل الحبيب إذا اكلفت به وأطو الزيارة دونه غبا

فلذاك خيرٌ من مواصلةٍ ليست تُزيدك عنده قربا

لا بل يملك ثم تدعوا باسمه فيقول هاءِ وطالما لبى[٢]

فلا يوجد أحبة إلا ومروا بتلك اللحظات من الفتور والنشاط في العلاقة ويرسل وصاياه ..

ولو علمت وخير العلم للإنسان ما صدقا[٣]

---

١) الديوان صـ ٦٩ .

٢) الديوان صـ ٦٩ .

٣) الديوان صـ ٣٧٢ .

ويقول ايضاً في وصية ذات إطار حكمي

تذكرت إذ أن الخليط زمانه وقد يسقم المرء الصحيح لتذكر[١]

النغم المتفرد

غلبت الأنغام ذات الإيقاع الجذاب فدخلت العقول ، واستحوذت على الشعور قبل استيعاب معانيها ؛ لذا شاع في الناس على اختلاف اهتماماتهم ودرجتهم " فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاماً موسيقياً تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر به القلوب " [٢] لغلبة النغم المستجد على شعر عمر؛ ذاع وانتشر ، وأقبل المغنون على تلحينه وغنائه مما ساعد على انتشاره وذيوعه أكثر وأكثر؛ حتى إنه كان يحب سماع شعره مُغنى ،و كان حظ أشعاره من التلحين والغناء حظًا وافرًا هو ونظراؤه من شعراء مكة ،وقد أفاض صاحب " الأغاني" في الحديث عن نغم شعر عمر وكيف أن إيقاعه انقسم إلى قسمين : القسم الأول شعر بيِّن الإيقاع يخضع الناس ،ويترنموا به، على اختلاف مستوياتهم الفنية – وقسم آخر: غامض الإيقاع يعوز المغنين إما للتبديل، أو لمد الصوت ، أو إعادته [٣] فهناك حسٌّ لغوي راق ، وعبارة سهلة طيَّعة وجمل تكاد تَنْطق باللحن قبل أن تُلحن يقول

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد[٤]

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

زعموها قالت لجارة لها وتعرت يوم حر تبترد

أكما ينعتنني تُبصرنني عمركن الله أم لا يقتصد

---

١) الديوان صـ ٢٨٥ .

٢) موسيقى الشعر د إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية طـ ٤صـ ١٨٦.

٣) الأغاني جـ ١ صـ ١٠٤.

٤) الديوان صـ ١٤٥ .

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في عينك من تود فالمقومات الفنية التي حوتها الصورة دالة على رقيق شعر عمر، وسبب عُلُو شعره بين الناس يقول صاحب الأغاني .

" راق عمر بن أبى ربيعة الناس ، وفاق نظراءه، وبزهم ؛ بسهولة شعره وشدة الأسر ، وحسن الوصف ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وطلاوة الاعتذار ، واختصار الخبر ، وصدق الصفاء ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرى ، وإن تشكى أشجى ، وقاس الهوى ، وأعلن الحب، وأسره وخبى الأحاديث وأذل صنيعه وقنع بالرجاء من الوفاء، وأغلق رهن منى ، وأهدره قتلاه وكان بعد هذا كله فصيحاً (١)

وقد رصد د / شوقي ضيف الأوزان والقصائد التي جاءت عليه في "كتابه التطور والتجديد في الشعر الأموى" (٢)

وللنغم الغالب على شعره صارت مكة " ذات الحظ الأول من أغاني الغزل في الحجاز أثناء العصر الأموي ، هذا الشعر الذى كانت ترتده حلوق المغنيين في كل مكان من الحجاز في مكة وفى المدينة " (٣) وقد تأثر عمر بالغناء والمغنين فلم يك يُرى إلا في صحبة أحدهم "الغريض" أو" بن سريج " "أومعبد" و تأثره إيقاعاً وموضوعاً فالتزم الأوزان المفعمة بالنغم .

ويقع على الموضوعات التي تهم الأكثرية فتكونت لديه ملكة فنية،

---

١) الأغاني جـ١ صـ ٥٠.

٢) صـ ٢٤٠ وما بعدها .

٣) الأغاني ج١صـ٣٩٣ .

وأذناً موسيقية قبل استمتاعهم بدلالاتها ورموزها "[١] . ولعل عمر أدرك أبعاد وأهمية الوزن ، وحتمية التوافق بينه وبين المعنى ، فقد كان موفقاً في إحداث تآخ محمود بين ألفاظه ، وأوزانه، وأحداثه ؛ حيث حُمِّل كل ذلك معانٍ تجيش بها نفسه وتهم المستمعين حوله، وتتوافق مع المغنين أداءً وغناءً ، ولا شك أن كثرة مصاحبته المغنيين والمغنيات أكسباه خبرة ، وأمداه بقدرة على التمييز؛ جعلته يقع على ما يتوافق مع أركان التوليفة الغنائية الشعرية التي تنقل نبض الناظم ، وتلتمس نبضًا موافقًا من المعنيين المستمعين .

وقد اهتم النقاد بالموسيقى الداخلية التي توفرت في شعر عمر كقوله

وثيرات أعجاز ، دِقاق خصورها طويلات أعناق ثقال الروادف [٢]

ومنها

وإن تعد لا تحفل ، وإن تدن لا تصل وإن تنأ لا نصبر ،وإن تدن أجذل

وإن تلتمس منا المودة نُعطها وإن نلتمس مما لديها تُعلل [٣]

ومنها

وأفضل أحلاماً وأعظم نائلاً وأقرب معروفاً وأبعد منكراً [٤]

وقد أجاد عمر توظيف الموسيقى في شعره حين يقول: [٥]

بنفسي من اشتكى حبه ومن إن شكا الحب لم يكذب

ومن إن تسخط أعتبته وأن يرني ساخطاً يُعتب

---

١) موسيقى الشعر دإبراهيم أنيس صـــ١٨٦طـــ٤ مكتبة الانجلو المصرية ٨٢٧

٢) الديوان ق ١٢٥

٣) الديوان ق: ١٩٧

٤) الديوان ق: ١٩٧

٥) الديوان صـــ ٢٥ .

ومن لا أُبالى رضا غيره إذ هو سُرَّ ، ولم يغضب
ومن لا يطيع بنا أهله ومن قد عصيت له أقربى
ومن لو نهانى من حبه عن الماء لم أشرب
ومن لا سلاح له يُتقى وإن هو نُزل لم يغلب

فقد تكرر الاسم الموصول " من " في معظم الأبيات كما تكرر حرف النفي " لم " فجاء النفي في الشطر الثاني بعد الأبيات في الشطر الأول من كل بيت، وتكرار الأفعال أو مشتقاتها ..(اشتكى – شكا ، تسخط – ساخطاً) ، وهناك انسجام نتيجة لتنقلات رتيبة محددة الفواصل الزمنية ،" تسخط أعتبته ، ساخطاً يعتب " وقد يتدخل المغنى فيطيل في المرات والقوافي ، وكل ما يحتاج مد وقد يتدخل بتغيير بعض الكلمات التي لا تتوافق مع اللحن والصوت

حركة الأحداث

أجاد عمر في رصد حركة المرأة ورد فعلها إزاء الأحداث الملتفة حوله

-فهزت رأسها عجباً وقالت : من بذا أمرك [١]
- فتنفست صعداً لحلقها وهوت فشقت جيبها فطر [٢]
- ولوت رأسها صراراً وقالت : إذ رأيتنى : اخترت ذلك انتا [٣]

– وصدود امرأة عمر قد يكون جاداً وقد يكون ممزوجاً بابتسامة ، " فصدت وقالت كاذب [٤] ، فقالت رصدت : أنت صب متيم [٥] ،

١) الديوان صـ ١٥٦.
٢) الديوان صـ ١٥٦.
٣) الديوان ـ صـ ٤٥٧.
٤) الديوان صـ ٢٠٣.
٥) الديوان صـ ١٠٨.

فصدت صدود الريم ثم تبسمت [1]

والواقع أن عمر بن أبى ربيعة قد طلع على الحجاز بفن شعرى تغلب عليه سيماء الحضارة أو يتسم بالتغيير في رقة معانيه، ودماثة ألفاظه ،وفى أسلوبه

الحوارى الشيق – تتبدى الذاتية والأنا في شعره فها هي المرأة لا تحض على لقياه فقط بل ترسل المراسيل لترغبه في الحضور

الحكمة : قد تظهر الحكمة في شعره وتأتى طبعية ؛ نظراً لاختلاطه بقسمى المجتمع : رجال ونساء :

إن الرجال على تآلفهم طبعوا على الاختلاف والغدرا"[2]

بألذ منك وإن نأيت وقلما ترعى النساء أمانة الغُياب[3]

آلا قاتل الله الهوى حيث أخلقا فما أن ترى إلا مشوباً ممزقا

فما من محب يستزيد حبيبه يعاتبه في الود إلا تفرقا(٤)

والشهر مثل اليوم إن رضيت واليوم إن غضبت مثل الشهر (٥)

حسن لدى حديث من أحببته وحديث من لا يستلذ قبيح (١)

المقطوعات الشعرية

أتت أشعار عمر في مقطوعات ، ولقطات تسجل الحس أو الأنا وكانت مقطوعات مميزة ؛ " فلقيت تلك المقطوعات من الجهد المبذول والمكثف سواء من الناحية اللغوية أم الإيقاعية أم الحوار القصصي؛ ما يجعلها ترقى إلى مصافِّ القصائد المطولة ، وكان ذلك أدعى لحفظها

١) الديوان صـ ٤٥٢.
٢) الديوان صـ٣٠٣ .
٣) الديوان صـ ٢٨ .
٤) الديوان ٣٨٢ .
٥) الديوان ١٣٢.

وتنافس المغنين على التغنى بها في مجالس الغنا ء[١]

الصورة الشعرية وأهميتها

أما عن صور عمر ... فهي طريفة مرحـــة مبهجـــة " اســـتطاع تطويعها – بما وهب من ذكاء، وخبرة ؛ لخدمة أغراضه هذا عدا مـــا تحتوى بعض أشعاره من موسيقى داخلية ترتاح لها الأذن وتطرب [٢]

فالصورة عند عمر مستمدة من منابع عدة منهـــا : – الطبيعـــة بأقسامها جامدة ومتحركة ..وحية ... والخيال لديه مميز ملامس للحقيقة ، والخيال " قوام العمل الشعرى وجوهره ، وروح التجربة ، ويقع عليه العبء الأكبر في تشكيل الصورة الفنية، والتعبير الجمالي المؤثر لحالة من قدرة هائلة على إعادة تشكيل الأشياء في علاقات جديـــدة متداخلـــة ومعقدة كتعقد الانفعالات الوجدانية وتداخلها ، والخيال يعطى الشـــاعر قدراً لابأس به من الحرية في التعامل مع الأشياء [٣] وكل من يستقرئ شعر عمر بن أبى ربيعة يجد بالإضافة إلى سهولة ألفاظـــه ومعانيـــه ، وثرائها بالعناصر الغنائية أنه مطعم بالحسية المقنعة فـــي معظمـــه ؛ إذ وصف ها هنا الناقة ، ثم رحلته ، ثم وصوله إلى هدفه، ثم تخليه عـــن قلوصه في الصحراء ، ثم تخمين أي الدور تسكن محبوبته وهكذا .

١) مذهب عمر بن أبى ربيعة في الغزل صـــ ٢٧٥.

٢) مذهب عمر بن أبى ربيعة في الغزل وتطوره الفنى صـــ ٢٠٨ .

٣) المرجع السابق صـــ ٢.

العصر الأموي والذاتية

والذاتية ، هي حديث الإنسان عن نفسه دخائله ،وعواطفه ، ووصف المواقف والأحداث التي تمخَّضت عنها تجاربه ، والذاتية موغلة في الإبداع الأدبي ، ضاربة بجذورها حتى العصر الجاهلي ؛ بل إن " السمة الغالبة على وجدان العربي في الجاهلية كانت هي الذاتية وهى التي كانت توجهه ، وعنها كان يصدر في أقواله وأفعاله [١]

والذاتية وحديث الذات أفاض فيهما عمر شعرا ...بقصَّ ما كان من مغامرات ، وإدبار وإقبال ، وأفاض نثراً حين قص في الأغاني " لقاءه ذات مرة فتاتين دنت إحداهما تُسر إليه وجعلت الأخرى تعضه ويقول في ذلك " فما شعرت بعض هذه من لذة سرار هذه " وحديثه عن تنكره في لبسة أعرابي حتى يستطيع التمتع برؤية بعض النسوة وسماع حديثهن " [٢] وعمر عاش حياة صاخبة مليئة بالأحداث لذا نراه " يقص بذات نفسه ، ويعبر في صدق عظيم ويصور لنا حياته تصويراً يعتمد في المقام الأول على التنقل بين الحسان، ثم النقل عنهن الذى يعكس صدى الأحداث ، وصور الواقع كما اعتملت في نفسه ، وهو بذلك ينقل لنا الحياة من داخل النفس " [٣]

وشعور عمر بذاته قوي، وحاد، ويصبه في إبداعه بشكل متفرد ؛ إذ "يصور لنا ذاته، بكل ما اعتمل فيها من أحداث الخارج ، وذبذبات

---

١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي حتى القرن الثامن عشر يحى إبراهيم صـ٢٦ كلية الآداب ج القاهرة إشراف د.مهدى علام ، عبد القادر القط

٢) الأغاني جـ ١ ٧٦ .

٣) الأغاني جـ ١ ١٧٦ – ١٧٧.

الداخل "[١] والشاعر المبدع يعبر من خلال ذاته ولا يتبع ولا ينقاد لسابقيه ،" لذا يتوجب على الفنان الأصيل المبدع أن يثور على القديم ويخرج عن الإطار العام المتوارث ، يذيب ، ويحطم، لكى يخلق من جديد [٢] والشاعر ليس شيئاً سطحياً ينبت على سطح الأرض كالأعشاب، بل يجب أن يكون ضارباً بجذوره في تراثه الفني استيعاباً، وهضماً ، لا تقليداً، واتباعاً؛ حتى إذا ما أبدع منجزه لم نجده طفيلياً مثبتاً عن نظائره ، وأنواعه ،بل يكون تمثَّل الموروث، وابتكر، ووضحت وشائج غير مرئية بينهما " إذ لا يختلف فن الشعر عن بقية فروع النشاط الإنساني ، بين الحاضرتين على أساس الماضي وينتفع الخالف بتراث السالف ، فالجديد هنا جديد تضرب جذوره في أعماق الماضى ولكنه يأتينا بثمر شهىَّ جديد ، قد ثقف صاحبه براعات الأدباء الذين سبقوه ولكنه لم يغن شخصه فيهم ، ولا نسى غايته من الخلق والابتكار [٣]

وعمر تبدى ذاتيته بازاً غيره من الشعراء تلك الذاتية المُشَكلة من إرثه الثقافي ، وموهبته الشخصية ، وثقافته المجتمعية، وقدرته الرصدية الموظفة لخدمة أدائه الغنائي بشكل متفرد وهكذا يلعب عنصر الذاتية دورًا هامًا في إبداع الشاعر أي شاعر معاصراً كان أو قديمًا ، حيث إنه لا يمكن إلا أن يكون ذاته ولن يستطيع أن يكون غير ذلك مهما بذل من جهد [٤] " فقد تفوق عمر في إظهار ذاتيته من خلال إبداعه الفني ،

---

١) الترجمة الذاتية في الأدب صـ ١١٤ .

٢) كولردج صـ١٥٦ .

٣) في النقد الأدبى د شوقى ضيف دار المعارف صـ١٧٦ ١٩٩٦ .

٤) الأدب وقيم الحياة المعاصرة ١٥٤د محمد زكى العشماوى الهيئة العامة للكتاب ط٢ ١٩٧٤ .

إذ عاشت سماته الشخصية وموروثه الثقافي جنباً إلى جنب في ذاته ويخلطها بانسيابية أثناء إبداعه ،فنظرة عمر للمواقف نظرة مغايرة عن سابقيه، ولم يستطع تعميقها أو السير على نهج لاحقيه، فقد قصر باعهم عن حيازة خصاله ، وصفاته فلم يستطيعوا مجاراته والاحتطاب في حبله ؛ إذ ذاته تفردت بسيطرتها على إبداعه " والفن الأصيل لا ينبثق إلا عن الإبداع الذاتي للشاعر لا أن يكون صياغة للحقائق المقررة مهما بلغت درجة الوثوق بها ، وإنما هو استكشاف لهذه الحقائق – على حد قول د عز الدين اسماعيل –[1] فالمرئيات تتكرر، والمواقف تعاد، والاختلاف في التفاصيل والصياغة " والشاعر المجدد هو الذى تكون له عينان ذكيتان نافذتان يرى بهما الأشياء رؤية جديدة ، ويخلقها خلقاً آخر ، وعندما يريد الشاعر أن يقدم إحساسه الذاتي الخاص بالحياة في صورة فنية شعرية لزم بالضرورة أن يكون قادرًا على أن يحتفظ بهذه الصورة حية ، فإن ما يخلقه جديدًا في مجال الفن عامة ، وفن الشعر على وجه الخصوص يبقى جديداً إلى الأبد[2] .

وفى قصيدته " ليلة ذي دوران " نجد الموضوع مكررًا من حب الشاعر لفتاة ،وافتقاده إياها ، وعزمه على لقياها وتجشمه الصعاب لتحقيق ذلك، وصبّ تلك الأحداث في أسلوب قصصي مرتب تليد في نهجه، طريف في سياقه .

يقول "عز الدين إسماعيل " : ها هو الأسلوب القصصي عنده لا يزال حياً يحتفظ بطزاجته رغم تداول السنين عليه ؛ ذلك مما أدخل عليه

١) التفسير النفسى للأدب دار المعارف صـ ٩٢٤ –١٩٦٣

٢) الأدب وقيم الحياة المعاصرة ١٥٥

من الجدة والابتكار سواء ، من ناحية الشكل أو المضمون ما جعله يساير عصره وما تلاه من عصور ، إذ إن الفكرة المبتكرة ترتبط لا محالة بإطارها المبتكر ، والعمل الأدبي القيم هو العمل المبتكر الذى يريد أن يعمق ، ويوسع من خبرتنا بالحياة ، وهذه الخبرة كانت قد ارتسمت أولاً في وجدان الشاعر، ثم انتقلت إلى وجدان المتلقي [١]

وعمر تشبع بحسه الذاتي فلا يخلو بيتً من إبداعه دون أن تنضح عليه ذاته ، ويبسمه بمبسمه ويجليه " وتمدنا بأصدق صورة للإنسان وتمنحنا أوفر حظاً من الحقيقة "[٢] وفى حديثه عن الذات تستغرقه اللحظة المعاشة "وهو ما ظهر في ليلة ذى دوران ، وغيرها من القصائد إذ " تستغرقه اللحظة الحاضرة فتغلق الوجود كله على هذا الحاضر بغية ملء ما يحس به صاحبها من نقص لكنه في الحقيقة يغالط نفسه ويكذب على نفسه بنفسه "

وعمر يتحدث عن مغامراته ولا نستطيع الجزم إن كان صادقاً أم كاذبا وعمر يستدعى صوره من الذاكرة " وهى مدد ثر لا ينضب تشكل حيزاً مترامي فيمد الشاعر بما يريد " إذ تمثل الذاكرة مستودعًا هائلًا يختزل الشاعر فيه كل ما قرأه " [٣] أو عاشه أوتخيله فما يكاد يشرع في الإبداع حتى تنسال عليه ما استودع

١) الأدب وفنونه د عز الدين إسماعيل صـ ٦٦- ٦٧

٢) المرجع السابق صـ ٧٣ .

٣) الترجمة الذاتية في الأدب العربي صـ ٥٤

المرأة المتغزل بها عند عمر

" الشعر فن جميل ينشأ من الناحية الوجدانية للنفس الإنسانية ، فيعبر بلغته الكلامية الموسيقية عن الانفعالات والعواطف " (١)

ومحبوبة عمر تنتمى لشريحة واحدة ؛ فهي مترفة، مرفهة صبغ داخلها وخارجها بالترف والتنعيم ؛ فغزل عمر " غزل حضري بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، هو حضري في نموذج المرأة التي يصورها ، تلك المرأة الجميلة الذكية المتمتعة بقسط من الحرية يتيح لها لقاء الشعراء، والاستماع إليهم ، بل والسعي نحوهم إذا لم يسعوا هم إليها ، ثم هو حضري في استجابته لمقتضيات الغناء والتلحين " (٢) ولم يألُ عمر جهدًا في وصف محاسنها ؛ بل استرسل في وصفها بالتفصيل : من دقة الخصر، وطيب الرائحة :

جمّ العظام ، لطيفة أحشاؤها والمسك من أردانها منثور (٣)

وقد وصف كل أعضائها وأفاض في الوصف من الأذرع والساق ، ونعومة البنان ، وعذوبة الفم ، وعطرها ، جمال العينين ، وانسياب الشعر وإسدال الثياب فعطرها هو الذى دلَّه علي مكانها فقد سقط في حيرة الجهل بخبائها " اين خباؤها " وقد يرصد أسباب الجمال والبهاء

متبلة صفراء مهضومة الحشا غذاها سرور دائم ونعيم

وامرأة عمر مرفهة ، ناعمة رقيقة ، وقد شط عمر في تصوير رقة بشرتها وحساسيتها ؛ فلو دب الذر مشيًا وئيدًا فوق بشرتها لأحدث

---

١) الأسلوب ،احمد الشايب ،صـ٦٧ ،مطبعة الفاروقية ١٩٣٩.

٢) الشعر الأموي صـ ١٤٤.

٣) الديوان ص٢٢٤..

جروحًا والتهبت:

لو دب ذر فوق ضاحى جلدها لأبان من آثارهن حدور"(١)

وقد سبق امرؤ القيس في تصوير ترف محبوبته ، وتنعمها بمثل هذه الصورة حين قال :

لو يدب الحولى من ولد الذر عليها لأندبتها الكلوم

همها العطر والفراش ويعلو ها لجين ولؤلؤ منظوم (٢)

وهى محاطة بمن يخدمها ، ويبدلها الرتابة ،والملل باللهو واللعب ، وجلب المسرات ومع ذلك تمل وتسأم(٣)

ولقد قالت لأتراب كا لها يلعبن في حجرتها

خدن عنى الظل لا يتبعنى ومضت تسعى إلى قينها

ومحبوبة عمر .... شغوفة بلقاء الشاعر في غير إثم ولا ذنب إما منفردة (٤)

فلست بناسٍ ليلة الدار مجلساً لزينب حتى يعلو الرأس رامس

خلاء بدت قمراء وتمخضت دُجُنته وغاب من هو حارس

فما نلت منها محرماً غير أننا كلانا من الثوب المورد لابس

نجيين نقضى اللهو في غير مأثم ولو رغمت ملكا شحين المعاطس أو في صحبة من أترابها (٥)

وقد أرى سرباً به حسناً مثل الجآذر أثياباً أبكارا

فيهن هند وهند لا شبيه لها ممن أقام من الجيران أو سارا

يممن مورقة الأفنان دانية وفى الخلاء فما يؤنسن ديارا

---

١) الديوان ٢٢٣ .

٢) ديوان امرىء القيس صـ ٩٩ .

٣) الديوان صـ ١٦٣ .

٤) الديوان صـ٢٠٥ .

٥) الديوان صـ ٢١٦ .

قالت :لو أن أبا الخطاب وافقنا ... فنلهوا اليوم أو ننشد اشعارا
فلم يرعهن إلا العيس طالعة ... يحملن بالنعف ركاباً وأوكارا
قلن : انزلوا نعمت دار بقربكم ... أهلاً وسهلاً بكم من زائر زارا
فقلت : من ذا المُحيى وانتبهت له ... أم من محدثنا هذا الذى زارا
قالت : محب رماه الحب آونة ... وهيجته دواعى الحب إذ حارا

ويشتط عمر في حكى – أو تخيل الظروف التي تمده بما يريد ، ولفرط إعجابه بنفسه ينص على أن مختلف الظروف تتكاتف حتى تحقق له ما يريد فها هي ذى صواحب معشوقته يشعرن برغبة الانفراد عند الحبيبين فيوفرن لهما ذلك في اعتراض ظاهر الزيف من محبوبته [1]

فسلمت واستأنست خيفة أن يرى ... عدو مكانى أو يرى كاشح فعلى
فقالت : وأرخت جانب الستر إنما ... معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها : ما بى لهم من ترقب ... ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا ... وهن طيبات بحاجة ذى التبل
عرفن الذى تهوى فقلن لها :ائذنى ... نطف ساعة في طيب ليل وفى سهل
فقالت : فلا تلبثن ، قلن : تحثى ... أتيناك ، وانسبن انسياب مها الرمل
فقمن وقد أفهمن ذا اللب إنما ... فعلن الذى يفعلن من ذاك ، من أجلى

ليس هذا فحسب بل قد يكثف لفظه ؛ إظهارًا لضيقه من بُعدها وتبرمه من هجرها، وبمجرد ما تحس "أم نوفل" أن "مهجته" تدعوها حتى تلبى سراعًا وكيف لا وهو " أبو الخطاب " وأسرعت في موافاتها باللقاء:

فاستجابت عند الدعاء كما ... لبى رجال يرجون حسن الثواب"

وأقبلت في جمع جميل هي أبرزهن بما يتضوع به خداها من أديم

١) ديوان عمر ٤٠٥– ٤٠٦٦.

الشباب ويختم المقطع بدعائه بالتعاسة على من سأله : أيحبها ؟ مجيبًا بأن حبه عدد النجم والحصى [١]

إن هندٌ قد أرسلت وأخو الشوق مرسل

أرسلت تستحثنى وتُفدى وتعزُلُ

ويمضى عمر في سرد هيام المرأة به واحتيالها ليتم اللقاء فتارة ترسل رسولاً تستحثه على الحضور. ويعلل سلوكها هذا المسلك غير المألوف على الفتاة العربية بأن الشوق بعثها على ذلك ، وقد تشجع عمر وتدفعه للقائها مشجعة ، نازعه منه رهبة خشية قومها ، فالله جاره وعليه الحذر

دست إلى رسولاً لا تكن فرقاً واحذروقيت – وأمر الحازم الحذر

إنى سمعت رجلاً من ذوى رحمى هم العدو بظهر الغيب قد نظروا

أن يقتلوك – وقاك القتل قادره- والله جارك مما أجمع النفر (٢)

ونلاحظ كثرة جمل الاعتراض بالدعاء .. وقيت – الله جارك .. مما يوضح الخط البيانى الذاتي المتوالى لدى عمر؛ فالمرأة تخشى عليه، فما تكاد تمس الموقف الذى قد يؤذيه حتى تدعو له بالسلامة، والنجاة ،والوقاية منه .

وعمر يمد سرده بمداد لا ينتهى من التشويق " إن عنصر التشويق في القصة لا ينحصر في عنصر واحد فقط من عناصرها وإنما يكمن في كل مكون من مكوناتها " [٣]

والمرأة بطلة قصص عمر تشاركه الحفاوة ، واللهفة للقاء ، وهى

---

١) الأغاني جـ١ صـ ٧٣.- الديوان صـ ٤٣

٢) ديوان عمر ٢٠٦

٣) عوامل التشويق في القصة القصيرة إبراهيم محمد عطا طـ ١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٤ صـ ٣٧.

إيجابية لها دور في إتمام ذلك ، فهي تدعوه أن يرسل لها رسولاً قبل مقدمه لتعد العدة وتحتاط للأمر؛ فلا ينكشف يحكى هذا عمر على لسانها:

هلا دسست رسولاً منك يعلمنى ولم تعجل إلى أن يسقط القمر(١)

وهنا نلاحظ أن البيئة ، وتماثل الحيوات ، وتوالى الدفقات التحضيرية دفعت الشعراء إلى التزام نهج تعبيرى قد يتقارب ، فها هو "العرجى" الذى يشبه عمر في نمط حياته الاجتماعية وظروفه يحكى كيف بعثت محبوبته رسولاً :

حور بعثن رسولاً في ملاطفة ثقفاً إذا عقل النسَّاءة الوهم

ثم يحكى قصة اللقاء، وطلبه ملاطفة "كلابة " حتى يقول على لسانها

قالت رضيت ولكن جئت في قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم

وعمر لا يلتزم خطًا شعوريًا أُحاديًا من التغني بهيام المرأة به ، والتماسها الطرق للقياه ، وإرسال المراسيل ، بل قد يصرح بحبه للقياهن ؛ فهن وإن تقربن إصبعاً تقرب هو ذراعاً ، ينهل من لقياهن لذيذ الحديث، وحسن الصحبة يقول :

أتانا رسول من ثلاث كواعب ورائقة تستجمع الحسن أجمعا
فلما تواقفنا وسلمت أقبلت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبا لهن بالعرفان لما عرفننى وقلن : امرؤ باغ أكل وأوضعا
وقربن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قِسن إصبعا
فلما تنازعنا الأحاديث قلن لى أخفت علينا أن نُغر ونخدعا (٢)

---

١) ديوان عمر ٢٠٨

٢) الديوان صـ ٣٢٦ .

والأبيات الغزلية – في تلك الفترة – غالبًا ما يربطها رابط من وجود الفتاة في صحبة من الحسان – ترقب العُذَّال واللوم واجتنابهم جراءة المرأة ؛ إذ مست التحضر، والخروج ، والبوح مع الاحتفاظ بالعفة ، وعدم مقارفة الآثام. إذ الإيمان لا زال قاراً في الدخائل النفسية عند الرجل والمرأة، وما اللقاء إلا تنفيس عن تباريح الهوى والانتفاع بالمتغيرات المجتمعية .

المواقف الغزلية

تعددت المواقف الغزلية من المرأة تجاه عمر فالمرأة لديه ذات ثوب قشيب .... فهي العاشقة الطالبة .. وقد تصدى كثير من النقاد والأدباء لتلك الفكرة الغزلية المستحدثة ، إذ تبدلت المواقف الغزلية من معشوقة مطلوبة إلى عاشقة طالبة بالتبعية وتبدل موقف الشاعر معها يقول الدكتور طه حسين : إن هذا نوع من النرجسية تعكس شدة الإعجاب بالنفس ويقول وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطرينه ويتهالكن عليه حتى فتن بنفسه فلم يتغن بحبه إياهن كما تغنين بحبهن إياه "[1]

بينما رأى العقاد أن ثمة جانب أُنثوى في شخصية عمر بن أبى ربيعة يتبدى في الاستمتاع بإعادة حديث ولهن به ثم إعراضهن وتمنعهن عليه وذلك تبدى في الأسماء التي يطلقها على نفسه يقول العقاد عن عمر بن أبى ربعة أن هناك " جانبًا أنثوياً في طبعه ، يظهر للقارىء من أبياته الكثيرة ، التي تنم عن ولع بكلمات النساء ، واستمتاع بروايتها ، والإبداء والإعادة فيها ، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة ، ولا أدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى في طبعه ، أنه كان يُبهن في تدليل نفسه ، وإظهار التمنع لطالباته .. ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر في تدليل اسمه ، بين تقليب ،وكناية ، وتسمية ، كما يعهد في أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب، وتارة المغيرى نسبة إلى جده المغيرة بن شعبة إذ كان يهوى الانتساب إليه متخطياً أباه ، وتارة عمر الذى لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التي

١) حديث الأربعاء طه حسين جـ صـ ٣١٤ .

يقارب بها المرأة في المزاج ، ويسايرها في الحديث ، ، ومن قبيل هذه الأنثويات ، أنه كان يقول " لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولا أعشــق .. وهذا حديث من هو اشق لنفسه قبل أن يكون معشوقاً لغيره ، ففيه خليقة المرأة ، أن تشعر بجنسها مطلوبة ، ولا تشعر بجنسها طالبه "[١] ،

أما د / شوقى ضيف فإنما أرجع هذا العكس في قص المشــاعر إلى القيم الجديدة التي سيطرت على المجتمع.

"فالصورة العامة في غزله إنه معشوق لا عاشق وعمر في ذلــك يعبر عن تطور جديد في الحياة العربية ... إلى أن يقول

كانت المرأة قبل غزل ابن أبى ربيعة هي المعشوقة ، أمــا فــي غزله فقد تحولت إلى عاشقة كما تحول عمر إلى معشوق " [٢]

ورأى د /شوقى ضيف أن التوليفة التي كان عمر بن أبى ربيعــة نتاجاً لها صعب أن تتكرر لذا يصعب تكرار شخصية عمر لأن تكراره يقتضى أن يكون الشاعر " له ثراء عمر وأن تكون له أمه التي عاشت تعشقه وأيضاً لابد أن يوجد مجتمع مكة ، وما فيه من نساء أصبن شيئاً من الحرية فكثر الاختلاط بينهن وبين الرجال ، على نحو ما كثر بــين نساء مكة وابن أبى ربيعة " [٣] ، وهو اختلاط يرنو إلى الالتقاء الفنى والإشباع النفسي لا أكثر إذ هدفن لهذا الالتقاء فضليات العصر ، فقــد اجتمع نسوة في المدينة من أهل الشرف " فتذاكرن عمر بن أبى ربيعــة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينة بنــت الحسين عليهما السلام : أنا لكن به فأرسلت له رسولاً ، وسمت له الليلة

---

١) شاعر الغزل صـــ ٤٠-٤٢ .

٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي صـــ ٢٥٠ .

٣) السابق صـــ٣٨١ .

والوقت وواعدت صواحبتها فوافاهن عمر على راحلته فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن ، فقال لهن : والله إنى لمحتاج لزيارة قبر الرسول في مسجده ، ولكن لا أُخالط بزيارتكن شيئاً ثم انصرف إلى مكة وقال : (١)

قالت سكينة والدموع ذوارف منها على الخدين والجلباب

ليت المغيري الذى لم أجزه فيما أطال تصيدى وطِلابى

كانت ترد لنا المنى أيامنا إذ لا نلام على هوى وتصابى

" فالشعر ها هنا يعد زاداً فنياً متسعاً يقبل عليه الناس حتى أصحاب الفضل وذوو المنزلة ،" (٢)

ونتيجة لهذا التدفق الالتقاء تبدلت كثير من المفاهيم في البيئة عامة وفى نظم "عمر " خاصة إذ أن النساء عنده هن العاشقات المتوددات المتمنيات لقاءه بل يطاردنه ، فالنساء الثلاث الكبرى والصغرى والوسطى أظهرن حبهن له له وهُيامه بهن .

وقد تأتى الصورة الشعرية في شكل ظريف ساخر إذ يصب فتى بنى مخزوم الثرى الوجيه ظرفه في ملاحة فنية متينة السبك لا تخفى على الشريفات ويقدرن قوله حق قدره يقول عمر في فاطمة بنت عبد الملك بن مروان

افعلى بالأسير إحدى ثلاث وافهمييهن ثم ردى جوابى

اقتليه قتلاً سريحاً مريحاً لا تكونى عليه سوط عذاب

أو أقيدى فإنما النفس بالنف ـــ قضاء مفصلاً في الكتاب

١) الديوان صـ ٢٨ .

٢) الشعر الأموي صـ ١٣٩ .

أو صليه وصلاً تقر به العيـ ن وشر الوصال وصل الكذاب (١) .

وإذا كانت الصورة هذه تعكس ظرف عمر وتلطفه في الحديث وإلزامه محبوبته بإتيانها ما يريد ، فقد تأتى صورة تعكس نفسية عمر الفراشية الطائرة حاطة على كل زهر حتى إنه من فرط الجميلات أشكل عليه الأمر فيسأل هل هي أجمل الدمى أم الحب أعمى [٢]

خرجت غداة النحر أعترض الدُمى فلم أرى أحلى منك في العين والقلب

فو الله ما أدرى أحسناً رُزقته أم الحب أعمى مثل ما قيل في الحب

وهو هنا ينكفىء على صورة البيئة التي هيأت له الهيام بالجميلات، فلا يقر جنب إحداهن بل هو في حراك دائم يتزود دعماً من الفاتنات المادات له بزاد جمالى متجدد يثرى تجاربه الفنية ، " والمرأة الحضرية في العصر الأموي كانت – كما كانت سكينة بنت الحسين – تتمتع بقسط من الاستقلال والحرية يتيح لها لقاء الرجال ومحادثتهم ، وبخاصة إذا كان موضوع الحديث متعلقاً بما شغل هذه البيئة من أشعار الغزل ، وعلاقات المحبين وفنون الأغانى ، والألحان على اختلافها ، وسوف نزداد اقتناعاً بهذه الحقيقة حين نرى كثرة من وردن ذكرهن في أخبار الغزليين وأشعارهم فبهذه الفترة وكثير منهن ممن أُوتين حظاً موفوراً في حسبهن ، وأدبهن ، وخلقهن ، مثل فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية ، وبنت مروان بن الحكم ، وعائشة بنت طلحة ، وغيرهن من فضليات نساء العصر ، وجميعهن ممن وردت أخبارهن بصورة أو بأخرى في قصائد الغزل وما حف به من نوادر

١) الشعر والشعراء ص ٢١٧.– الديوان ٢٨

٢) ديوان المعانى جـ ١ ٢٢٨.– ٩٣

وحكايات بعضها صادق النسبة وبعضها مما التمسه الرواة تعقيباً على أبيات أو شرحاً لها "[١]

كُثَّر الآتيات للحج من كل حدب وصوب ، يقبلن عليه وهو في انتظارهن فموسم الحج موسم تحقيق الأمانى بالنسبة لعمر يقول[٢]

ليت ذا الحج كان حتماً علينا كل شهرين حجة واعتمارا"(٣)

فعمر العاشق المغامر تقلب في جميع الأدوار وتزيا مختلف الأزياء تبعاً للمواقف فهو –عذرى – مقامر – متهور – رشافاً للمتع تارة ، وتارة أخرى قاصاً بإسلوب ينزع الإعجاب فقد ذهب إلى عشيقته وبعد اعتراضها ورفضها ولطم وجهها سمحت وباتا في متعة [٤]

فبت ألثمها طوراً ويمنعنى -إذا تمايل- عنه البرد والخصر
حتى إذا الليل ولىّ قالتا زمرا قوماً بعيشكما قد نورّ السحر
فقمت أمشى وقامت وهى فاترة كشارب الخمر بطىّ مشيه السكر
يسحبن خلفى ذيول الخَزِّ آونة وناعم العب كيلا يُعرف الأثر

ونلاحظ أن البيت الذى يعد ثمرة هذا اللقاء مع ما تخلله من تكبد للمشاق وتهور ومجازفة غير محسوبة حصر متعته في قوله

فبت ألثمها طوراً ويمنعنى - إذا تمايل – عنه البرد والخصر

كذلك فعل في قصيدته الأشهر الرائية الكبرى

إذ قص المغامرة في أربع وثلاثين بيتاً ويشير لما استمتع به في بيت واحد

---

١) الشعر الأموي صـ ١٤٠ .

٢) الديوان صـ ٢٦٦ .

٣) الديوان صـ ٣٠١[.

٤) الديوان عمر صـ ٨ .-٢٠٩

فبت قرين العين أعطيت حاجتى أقبـل فاهـاً في الخـلاء فـأكثر(١)

فقد أسهب في وصف مغامراته وما تكبده وما عاناه واختزل فـي سرد لحظة متعته أو سرد ثمرة تلك المغامرة واكتفى بالتنويه أو الإشارة أو الرمز" ومن طبيعة السرد أن يأخذ مساره النصى على نحو أفقي تنمو فيه الأحداث وتتطور ، وتتحرك فيه الشخوص حركة أفقيـة مسـايرة للسرد لكنها قد لا تسايره فتغير حركتها لتأخذ شكلاً أفقياً ، وهنا يتعقـد السرد وتتولد دراميته "[٢]

وقد يعتنق عمر التجربة العذرية فنراه يتهاوى هياماً وشوقاً ويتألم لوعة وهياماً؛ وتتبدى صورة مجتمعه المتذبذبة بـين صـرامة العـادة وتسامح الحضارة يقول فالوجد بين والقلب يئن والإحسـاس بتبـاريح الهوى طاغ

أعبدة ما ينسى مودتك القلب ولا هـو يسـليه رخـاء ولا كـرب
ولا قـول واش كاشـح ذى عـداوة ولا بعـد دار إن نأيـت ولا قـرب
وما ذاك من نُعمى لديك أصابها ولكـن حبـاً مـا يقاربـه حـب
فإن تقبلى ياعبد توبة تائب يتـب ثـم لا يوجـد لـه أبـداً ذنـب
أُذل لكـم ياعبـد فيمـا هـويتم وإنى إذا ما رامنى غيركم صعب (٣)

وقد يأتي بصورة أخرى تظهر عبث النساء ورغبتهن في التواصل ومد السبب تلو السبب في إقامة التواصل

وقولهـا لفتـاة غـير فاحشـة أرائـح ممسـياً أم بـاكر عمـر؟
الله جـار لـه إمـا أقـام بنـا وفـى الرحيـل إذا مـا ضـمه السـفر (٤)

---

١) الديوان صـ ٩ .
٢) بلاغة السرد د محمد عبد المطلب وزارة الثقافة طـ ١ صـ١١٢ ٢٠١٣
٣) ديوان عمر صـ٢٣
٤) الديوان صـ ١١٤.

فعمر بفطنته لخبايا النساء ومخزونه المعرفى شعورهن وشغفهن للاستمتاع بالنقلة الحضارية والتواصل مع بارزى المجتمع من أهل الفن والغناء والموسيقى لن يعترضن على أية صورة يتحدث فيها عنهن ، بل يسعدهن الرجوع بالغنيمة ألا وهى أن الشاعر المكى تحدث بحسنهن دون سواهن حديثاً تسير به الركبان ، بل إن امرأة شكت صدوده ، وبثت حيرتها في تفسير هجرانه ، وأكثر خشيتها أن يكون تعلق بأخرى ، يقول عمر على لسانها محدثة أصحابها[١]

ألا ليت شعرى فيم كان صدوده أعلق أخرى أم علىّ به عتب

والمرأة الفطنة لدهاء الرجل يحفظها كيد المرأة من الوقوع في حبائل عمر فرفضن التجاوب معه لكيلا يهجرهن بعد قضاء وتره فأشار إلى ذلك يقول عمر: [٢]

بعثت وليدتى سحراً وقلت لها : خذى حذرك
وقولى في ملاطفةٍ ، لزينب نولى عمرك
فإن داويت ذا سقم فأخزى الله من كفرك
فهزت رأسها عجباً وقالت : من بذا أمرك
أهذا سحرك ؟! النسوا ن قد خبرننى خبرك
وقلن : إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرك

ومنهن من تنتبه لخدع الأتراب فتزهو بجمالها وتتيه بحب عمر لها وتدلهه في حبها فتدرك نفسهن عليها لما بها من جمال ودلال [٣]

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

---

١) الديوان صـ ٢٥ .
٢) الأغاني جـ ١ صـ ٦٠
٣) الديوان صـ ١٤٥

واستبدت مرة واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

زعموها سألت جارتها وتعرَّت ذات يوم تبترد

أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود

حسد حُمِّلنه من حسنها وقديماً كان في الناس الحسد

الفصل الثالث

قراءة جديدة لبعض أبيات الرائية

تقف المرأة بشكل جلى أو خفى وراء شيوع بعض الأغراض الفنية ، بل وورود أكثر من بناء فنى يتغنى بجمالها، وإلهامها، إذ تتحرك الألسن بوصف جمالها ، أو التغني بحبها ، أو حكىّ ما كان من شأنها .إذ إن شعر عمر مرآة للحياة التي يحياها ومدى توافقه معها ، أو تخالفه لها ، وفى شعره " تجلى الذات الفردية والسلوك الحضاري كما أنها يمكن أن تتضمن فاعليات السلوك البدائي الذى يعد أرضية مهمة للثقافات [١]

والسر في تأثير المرأة في الرجل هو الحب الذى عرفه البعض بأنه البحث عن القسيم ، أو الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في الخلقة ، وإشباع الغريزة الجنسية أو غريزة حب السيطرة "[٢]

هناك تحرر اجتماعي مدَّ ظله على المرأة الأموية ، لكن ذلك لا يقتضى حتمية انفلاتها أو غضها الطرف عن الخلق والدين

فالمقصوص بأبيات عمر لا ينكفىء على حتمية وقوعه في الواقع فقد يكون متخيلاً يقول د محمد فتوح "

" حسية المغامرة الشعرية لا تستلزم أن تكون كذلك في عالم الواقع، فكثيرً ما يصور الشاعر تجاربًا عاشها خيالاً ولم يخضها حقيقة ، وقد يجلو لنا في شعره صورًا أبيقورية تنضح بالحس والرغبة دون أن يكون لها وجود إلا في ذلك الخيال، ومن ثم لا عجب أن يلتقط عمر

---

١) رواية السيرة الذاتية من خلال ثلاثية الخبز الحافى –رسالة ماجستير سمير محمد مندى إشراف جابر عصفور كلية الآداب ج القاهرة ٢٠٠٤

٢) "أثر المرأة في الشعر الأموي " ٥٦٤.

بن أبى ربيعة بادرة التحرر الاجتماعي التي ظفرت بها المرأة الأرستقراطية في العصر الأموي فيجعل من هذه البادرة ظاهرة ، ويصوغ منها أساطير في المطاردة والوصول ويحول ذراتها الصغيرة بالكلمة الشاعرة أبنية وقباباً شاهقة " (١)

تناول النقاد قصيدة الرائية الكبرى أشهر قصائد عمر بن أبى ربيعة بالتحليل والشرح وهى كلها موقوفة على الغزل تبدى بها المستوي الفني ؛ إذ تداخل الإرث الفني القديم ، من البدء بالأطلال وتوظيفها، أو التمهيد بها للغزل، مع بروز وجلاء شخصية المتغزل وانتهاجه نمطاً جديداً إذ يعكس هُيام النساء به وتقاطرهن عليه لما امتاز به من خصال متفردة ، وتلاحم ذلك مع توصله لرؤية قَصّيّة ، استطاعت إذابة كل ذلك ، وتنظيمها دفقات قصصية تصاعدية بشكل ريادي أول القصيدة (٢)

هيج القلب مغان وصير	دراسات قد علاهن الشجر
ورياح الصيف قد أذرت بها	تنسج الترب فنوناً والمطر
ظللت فيها ذات يوم واقفا	أسأل المنزل هل فيه خبر
للتى قالت لأتراب لها	قطف فيهن أنس وخفر
إذ تمشين بجو مؤنق	نير النبت تغشاه الزهر
بدماث سهلة زينها	يوم غيم لم يخالطه قتر
قد خلونا فتمنين بنا	إذ خلونا اليوم نبدى مانسر
فعرفن الشوق في مقلتها	وحُباب الشوق يبديه النظر

١) العصر الأموي صـ ١٤٣ .

٢) الديوان صـ ١٢٥ .

قلـــن يسترضـينها منيتنـا ... لـو أتانـا اليـوم في سـر عمـر
بينمـا يذكرننـــى أبصـرننى ... دون قيـد الميـل يغـدو بـى الأغـر
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ... قالـت الوسـطى : نعـم هـذا عمـر
قالت الصغرى وقـد تيمتهـا ... قد عرفنـاه وهـل يخفـى القمـر ؟
ذا حبيـب لـم يعـرج دوننـا ... سـاقه الحـين إلينـا والقـــدر
فأتانـا حـين ألقـى بركـــه ... جمـل الليـل عليـه واسبطـــر
ورضـاب المسـك مـن أثوابـه ... مرمـــر المـــاء عليـــه فنضـــر
قـد أتانـا ماتمنينـا وقـــد ... غيـب الأبـرام عنـا القـــذر"(١)

رؤية تحليلية

القصيدة صورة فنية مبدعة انسابت في تشكيل جمالى " هو ثمرة التزاوج بين إحساس الشاعر بعجز اللغة العادية ومحاولة التعبير عـــن تجربته وموقفه ، وهذا يحدث فيها تغييرات أو يخلق العلاقات الجديـــدة التي تكسبها فعالية خاصة تجعلها قادرة على التجربة والتعبير عنها في

١) المعانى : ج معنى اسم مكان من غني بالمكان أق أقام به ثم رحل عنه الصير : ج صيرة : حظيرة الدواب ، والصير : القبر . أذرت : أطارت وفرقت . الأتراب : النظراء ج ترب وهي التي في سنها . قطف : ج قطوف : وهي البطيئة في سيرها . الخفر : الحياء . الجو : ما اتسع من الأدوية . المونق : الحسن . الدماث : ج : دمث : وهو المكان الرملي اللين . القتر : الغبار . حباب الشوق : معظم الشوق إشارة إلى كثرته قيد الميل : قدر الميل . الأغر : الفرس في وجهه بياض . تيمه الحب : جعله عبداً ذليلا تيمها : شغل قلبها . لم يعرج : لم يقف . برك الجمل : صدره . اسبطر : امتد واضطجع أي أتى حين اشتد الظلام . رضاب المسك : فتات المسك . مرم الماء عليه : جعله يمر على رضاب المسك فازداد حسناً . الأبرام : ج برم وهو اللئيم ، وأصله ذلك الذى لا يشارك القوم في الميسر ولا يخرج معهم فيه شيئاً . القذر : ج قذور وهو الرجل الذي ينفر منه الناس فلا يخالطونه لما يعرف عنه من سوء خلقه . – الديوان صـــ٢٦٣

(٢) الصورة الفنية المقدمة صـــ د

تشكيل صوري وجيز (٢)

ما قبل النص : اشتهر عمر بمنهج تغزلـــى خـــاص ؛ إذ يســـقط إعجابه بنفسه على لسان شخصياته ويستنطقهم بما يهوى أن يســـمع أو بما يستمتع بإشاعته عنه من أنه شهير في عالم النساء مرغوبـــاً مـــنهن يتطلعن إليه في أبيات شهيرات

بينما ينعتني أبصرني ... دون قيد الميل يعدو بي الأغرو .

قالت الكبري : اتعرفن الفتى قالت الوسطي نعم هذا عمر

قالت الصغرى : وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

فها هو يستحوذ على قلوب الشقيقات الثلاث ، فتسرد كل مـــنهن المعلومات التي تحوزها وكلها معلومات تصب فيما ابتغي من شـــهرته في عالم النساء، وقد استطاع أن يكثف انتباهنا ونلهث خلفه لنرى مـــاذا سيفعل؟ وكيف سيتخلص مما نهل منه ثم صار عبئًا عليه؟ ولكن أترى هل كان مدركاً أنه ينسج خيوطاً قصصية يتصدر هو فيهـــا المشـــهد ويصير بطلاً؟ ، نعلم أنه كان يراعى مقتضيات العصر فالمغنون مثـــل "الغريض" "ابن سريج " وغيرهما يتلقفون المعنـــي المصـــبوب فـــي الأوزان الرقيقة "كالمتقارب والسريع والوافر" وغيرهـــا مـــن الأوزان الرفيعة والرمل ليتغنوه ، ويترنموا به في مجالس لهوهم .

القصيدة استهلت بمطلع طللي مما يدل على رسوخ النسق القـــديم في ذهنه وتسلله إلى تعبيره ، وعمر وضع بعض أسس الفن القصصي ؛ إذ حدد الزمان نهاراً، والطقس جميل والمكان يعج بالبهاء ؛ حيث الزهر المونق ، وهدأة الهاجرة، واستكانة الريح معها فـــي هـــدأتها، واختـــار شخصيات ثانوية، كلهن خاضعات لخدمته وإبراز الشخصـــية الرئيســـة وهى شخصية "عمر" نفسه ، والإطار الذى دارت فيه القصيدة إطـــار

حركة وتنقل، حيث الفتيات وبينهن صاحبته يسرن ويتحدثن في موضوع خاص ، وهو إعلان أمنية وُدهن لو رأين عمر، فإذا الأمنية تتحقق فجأة ، ويأتي عمر يعبّق المكان برائحته الذكية ، فارس أشم على فرسه الأغر.. " فإن الأموي معروف بتعلقه الحميم بالحياة البدوية حيث يجسد الرجل والحصان نقاوة العرق ، وحيث المشهد الثقافي في منجى من الدخيل " (١) .

ونلاحظ أن وسمه فرسه بالأغر، يوضح أنه فارس مغوار، فلا يستطيع السيطرة على الفرس الأغر إلا الفارس ، وفى قَصِّه قصص الفتيات وحديثهن يستحضر فنياً خاصية –الصاحبين – حيث المعروف أن أقل الجمع ثلاثة – والبدوي يحتاج لمن يسامره ومن يخدمه ؛ لذا دائماً مصحوب بصاحبين وهو يبرز الفارس المتوهج المُتَمَني من النساء ، وهنا تطوير لفكرة الفارس ...

فقديماً كان امرؤ القيس يقص مغامراته من ذبح ناقته والسمو إلى النساء بعد نوم الأهل وأنه سرعان ما يكون موضع ترحيب واهتمام . أما عمر فالنساء هن المرسلات له المراسيل ملتمسات وصله .

فهناك تضخم عال للذات ، فقد حس "عمر بن أبي ربيعة" وسمع الحوار بشكل تخيلى أو واقعى فاستطاع من خلاله استعراض صفاته الذاتية وإبهاره للفتيات وتمنيهن سراً رؤيته فإذا أمنيتهن تتحقق جهراً .

ويعلق عليها د محمد سامى الدهان قائلاً :ــ " زاد الشاعر في غناه بساطة ألفاظه ، وسلاسة تعابيره وموسيقا قصيدته فكأننا في ذلك شأن القصص البارعة التي تملك اللب ويؤمن بها العقل فيحسب أنه

١) سوسولوجيا الغزل العربي الشعر العذرى نموذجاً –د الطاهر لبيب –دار سينا للنشر ص ٥٤.

مضطر إلى أن يتبع ما فيها حتى يعرف ما كان من خير وما كان من شر " [١]

هناك خط درامى واضح رسمت فيه الشخصيات ، ودار بينها حوار مميز يخالف سابقيه من الشعراء فهو لا يقحمه على إبداعه بشكل سردى جاف ، بل يهبه قدراً من الليونة والحيوية حسبما يمليه الموقف، وحواره يعكس دقته ولينه مع الشخصية التي يجرى الحوار على لسانها، وباقتدار يستعمل اللغة النسائية ويصوغها في إبداع سهل ممتنع " فقد أراد عمر أن يتقرب إليها ، وأن يتعرف على نفسيتها وأن يكتشف عالمها ؛ليحسن وصفها، ويجيد الحديث عنها ،

ومن أجل هذا تعلق بها عمر تعلق الرجل وتعلق الفنان ، وربما كان تعلق الفنان بها يفوق تعلق الرجل ؛ لأنه كان يلهو بالحب الذى اتخذ منه متعته الكبرى ولعبته المفضلة " [٢]

ونلاحظ كثرة " الصور الفوتغرافية الجميلة ، واللوحات الزيتية الفنية والمقابلات الإذاعية ، ولكنها بموجات موحدة لا تعزف إلا لحن الحب ، ولا تنشد إلا أناشيد الغزل ، ولا يظهر على شاشتها إلا صور الحسناوات المقنعات حيناً والعاريات أحياناً أخرى" [٣]

والبناء الفني للقصيدة..... يشيع فيه حسن التخلص وجودة الانسياب ؛

إذ انساب من الأطلال إلى ذكر الحسان، والجو النفسي مفعَم بالبهجة والأنس والحبور، تمثل ذلك في تينك الزهور، وانتشار أريج

---

١) سامى الدهان صـ ٧٢.

٢) تاريخ الشعر العربي يوسف خليف صـ ٧٦.

٣) صور المرأة .. رسالة ماجستير صـ ٨٧.

العطر، وفواتح الزهور العطرة، فبدلاً من جو الحـــزن والكآبـــة جـــو الارتحال، وألم الفراق ؛ نجد الفرح يتشظي ويشيع، فيتخلـــل المواقـــف الثلاثة حديثهن وشعورهن ، حضور الفارس ، وقص الحديث، والتغني بتحقيق الأمنية بعد الرؤية، فقد قصَّ نجوى الفتيات بينهن وبين أنفسهن، وهن في مأمن من الرقباء... ثم الإفصاح عن السعادة بتحقق الأمنيـــة ، كل ذلك في أسلوب مميز سهل واقتدار بيِّن على تطويع اللغة . "

وقد جمع عمر عناصر الصورة واستوفى أجزاءها " والصورة تتحدد بدقة اللفظ ، والأسلوب والمعنى ، والإحساس والشـــعور الكامـــل بالحياة، وهى في الشعر تعتمد على الأسلوب الذى يكنى ويومئ وترسم بمهارة عن طريق مقاربة المجهول بالمعروف، أو الانتقال مـــن عـــالم النفس إلى عالم الطبيعة ، أو إعادة تشكيله من جديد عن طريـــق خلـــق العلاقات الجديدة في اللغة التي تنتج له صـــور المجـــاز مـــن الكنايـــة والتشبيه، والاستعارة ، والرمز [1]

كانت القصيدة انحناءة جديدة في الشعر العربي ؛ إذ مالت إلـــى مخاطبة المتلقين بما يفهمونه لفظاً، ومعنى ، وسرداً بالإضافة إلى توزيع الأدوار على الشخصيات كلٌ يقوم بدوره.

والقصيدة تعد سجل إثبات ؛ إذ أثبت عمر فـــي شـــعره النســـاء المتغزل بهن ، صفاتهن ، وأخبارهن ، ما بدا منهن وما خفى ، فرحهن به وبلقائه وإقباله ، حزنهن من انصرافه وإدباره ، كلٌ باسمها وما حدث معها وتوقيته ، وكأنه هنا يستحضر "العقاد" الذى أوجب حتمية تسجيل المبدع في إبداعه صفحات حياته وأحداثها ؛ حتى يعد مـــرآة تـــنعكس

١) الصورة الفنية رسالة ماجستير صـــ د

عليها ذاته " ليس شعر عمر في حقيقة الأمر إلا خلاصة صادقة لحياة هذه الجماعات المترفة " – على حد قول طه حسين [١] – فعمر يكشف لنا المرأة الحجازية التي عاصرته والتي هي انعكاس للمجتمع وتصرفاتها مرآة ينعكس عليها الفكر السائد والوضع المجتمعي ؛ يقول طه حسين : " ..... الذى يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة في هذا القرن الأول يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبى ربيعة فلن يظفر به في مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ بمثل ما يظفر به في هذا الشعر" [٢]

وهناك إبداع فنى في القصيدة كلها وإن كنا نلمسه بشكل بيِّن في بيته

ورضاب المسك من أثوابه مر الماء عليه فنضر

فالصورة في هذا البيت منتزعة من عدة مناح فالرضاب : للفم ..تذوق ، والمسك : للشم، والثوب : للمس ، والمرمر بصفائه للعين ، كما النضارة أيضاً تدركها العين ... وصاغ من كل تلك المختلفات صياغة متفردة. فها هو لفظ بسيط مركب المعنى يتشظى الفن فيه في بلاغة فريدة لا نستطيع حصر جزئياتها وإن تبدت بلاغتها في بساطتها توافقاً مع قول الدكتور العزب – رحمه الله – " وليس الفن زخرفة بلاغية مجوفة تضاف إلى موضوع خارج منشىء ، فالزخرف يعنى أن بمادته لغوية أخذت مكانة جمادية وجودية ، أما دفء الحركة ، وجدل الحياة ، وتوهج الحضور فنشأ وراء هذه الزخارف الجامدة حياة " [٣]

إن عمر ذو نزعة ذاتية بينة حتى وهو يقتفى أثر القدامى في ذكر

---

١) حديث الأربعاء ج١ ص ٢٩٤ وما بعدها .

٢) حديث الأربعاء جـ١ صـ ٢٩٦– ٢٩٧ .

٣) طبيعة الشعر د محمد أحمد العزب صـ١٣٤ منشورات أوراق ١٩٨٥ .

الأطلال كان ذاتى التعبير؛ إذ لم يتقيد فيُصدر بها القصائد، بل هناك قصيدة ختم بها ببيتين يشيرا للأطلال

ولقد عرفت لها أطلال منزلة بالخيف غيَّرها الأرواح والمطر

هاجت لنا ذكر منها معارفها وقد تهيج فؤاد العاشق الذكر (١)

فقد وظف الأطلال بشكل جديد جعل الدكتور محمد زكى العشماوي يقول : " كانت الأطلال بالنسبة لعمر مفتاحًا نفسيًا لموضوع قصيدته بحيث تنسجم وتتآخي مع باقي أبيات القصيدة لتكون عاطفة سائدة تساير باقي العواطف ، وتكون معها أخيراً وحدة فنية متكاملة النسج والخلايا لا تنقسم الصورة فيها على نفسها ولم تتناقض معها، وإنما تثير عاطفة سائدة موحدة لإبراز أثر موحد " (٢)

وعمر في ذكره للأطلال يتزيا زى المجددين ، فهو لم يتكلم عن مخلفات الأطلال من بقايا المواقد أو أثر الخيام ، أو يذهب إليها قاصدًا متمرغًا في ترابها ، وإنما جاء حديثه عفويًا مقبولاً : تقول تيسير أحمد " " إن أطلال عمر مفتاح نفسيته ، وقصيدته فكلما زاد عدد أبياته الطللية عن ثلاثة على الأقل وصاحب ذلك شيء من التلوع والحزن – وغالباً ما يصاحبه –تكون مسار القصيدة وتدرجها بشيء من نتيجة أكيدة محتمة وهى القطيعة أو التمنع ، وعكس ذلك يتسم عن وصال وتلذذ، وهذا ما تفرد فيه عمر وهو دليل على وحدته العضوية والفنية (٣) قد يندفع عمر في تصوير هيام المرأة وغرامها به ،ولكن لا يخلو من عاطفة لها ، بل قد يبادلها عاطفة بأخرى

---

١) الديوان صـ ق ٩.

٢) قضايا النقد الأدبي المعاصر صـ ١٩٠- ١٩١ .

٣) مذهب عمر الفني ٣٧٢ .

فلما تلاقينا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

فقالت وأرخت جانب الستر إنما معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى

فقلت لها مابى لهم من ترقب ولكن سرِّى ليس يحمله مثلى (١)

وهى أبيات ألقت لُحمتُها وسُداها حتى إنها استلفتت نظر "جميل بثينة" فقال عنها " هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار (٢) أو وقد اختلفت التفاسير في رؤية شعر عمر فبينما يراه البعض طريفًا جذابًا ، يراه آخرون قصر عن اللحاق بالأقدمين ؛ لأنه لم يسلك مسلكهم ، يقول "المفضل الضبي " إنه لم يرق كما رق الشعراء ؛ لأنه ما شكا قط من حبيب هجر ، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيبه بها ، وأن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ، ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم " (٣)

عمر في غزله توجهه خبرته الشخصية التي تستجيب لدواعي الفن التجديدية لديه ، فهو لم يك كل هؤلاء الذين نوه عليهم "طه حسين "أو "العقاد" أو "شوقي ضيف " من الميل إلى الأُنثوية أو الشذوذ أو النرجسية وإلا لما خفى أمره على فحول قومه فهمًا ونقداً إنما اجتمعت له من الأسباب والدواعي الذاتية والبيئية ما هيأ له التميز على أقرانه

" يقول د صلاح الدين الهادي :

لم لا يعجب بنفسه وهو الشاب الوسيم ؟، الموصوف بين شباب بنى مخزوم بأنه أفرعهم طولاً ، وأجهرهم جمالاً ، وأبهرهم شارة ، وعارضة ، وبيانًا وآنقهم زياً ومظهراً ؟ كان إذ ا فرغ من المناسك في

---

١) الديوان صـ ٢٤ .

٢) الشعر والشعراء ٢١٧.

٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي د شوقى ضيف صـ ٢٥٠.

موسم الحج يخرج من إحرامه ، فيلبس الحلل ، ويركب النجائب ، المخضوبة بالحناء ، عليها الطنافس والديباج ، ويسبل لمته ، ثم يخرج عارضًا وسامته ،وأبهته على النساء من حجازيات وغير حجازيات " [١] هو رغمًا عن تلك الميزات ، وانغماسه في اللهو في منأى عن الحرام "يلهو ما يلهو ، ويتغزل ما يتغزل ، ثم لا ينسى أن يعلن مع هذا جاهدً أنه لا يستبيح محرمًا ، ولا يأتي بريبة ، ولا يزال على سنة الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون "[٢]

وعمر لا يسهو عن توضيح موقف المرأة من منهجه هو ومن لف لفه " يتأثر النساء تأثراً شديداً بهذه الحركة الغزلية فأحببنها ، وحرضن عليها واجتهدن في تقويتها، وتذكى نارها واستبقن إلى إرضاء الشعراء، وتحريضهم على قول الشعر وإغرائهم بالتغزل فيهن " [٣]

" وإنما هو عاشق للجمال ، مفتون به والنساء خير من يمثلن الجمال فهن " معارض لهذا الجمال ، وحب الجمال لا يمكن أن يقف عند تجربة واحدة ؛ لأن هذا من سمة المحب ، الذى يسعى إلى تحقيق ذاته مع من يحب ، فلا يبقى له بعد هذا مطلب أو هدف ، وما هكذا عاشق الجمال الباحث دائمً عن زاد متجدد لتجاربه الفنية في دنيا الجمال ، لا يكاد يسكن إلى واحدة إلا ريثما يقع على غيرها ، وما يمنعه ما دامت الفرص متاحة ؛ وظروف البيئة مساعدة ، ومواسم الحج تأتى إلى مدن الحجاز بالمليحات من كل حدب وصوب فيهن حسان الشام ، وجميلات العراق ، من ذوات البيوتات والشرف ، والصيت الذائع في

١) اتجاهات الشعر في العصر الأموي صـ ٣٨٦.

٢) شاعر الغزل صـ ٣٥.

٣) أثر المرأة في الشعر الأموي صـ ٢٣٢رسالة دكتوراة محمود عثمان سلمان .

عالم الملاحة ، ومجالس الغناء ، ومجال اللهو ، تجتذب النساء كما تجتذب الرجال وتفسح لهن مكاناً كما تفسح للرجال آخر ، والكل آمن في الأخذ بهذه المتع الفنية المباحة " (١)

يقول عمر : (٢)

وليلة ذى دوران جشمنى السُّرى	**وقد يجشم الهول المُحِبُّ المُغُّرر**
فبت رقيباً للرفاق على شفا	**أُحاذر منهم من يطوف وأنظر**
أليهم متى يستمكن النوم منهم	**ولى مجلس لولا اللبانة أوعر**
وباتت قلوصى بالعراء ورحلها	**لطارق ليل أو لمن جاء مُعور**
وبت أُناجى النفس أين خباؤها	**وكيف لما آتى من الأمر مصدر**
فدل عليها القلب ريَّا عرفتها لها	**وهوى النفس الذى كاد يظهر**
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت	**مصابيح شُبت بالعشاء وأنؤر**
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه	**وروح رعيان ونوم سُمر**
وخُفض عنى الصوت أقبلت مِشية ال	**حُباب وشخصى خشية الحى أزور**

فالقصيدة بما اشتملت عليه من نسج الكلمات ، وصورها ، ورموزها ، ومشاعرها ، مع تعادلها مع الشق الآخر من الفكر والإحساس بين العاطفة ، والصورة ، والمعادلة البينة الخلط ؛ في تواؤم حركة القصيدة المادية والمعنوية مع الانفعال الناظم ، والصوت المغنى يشهد أن القصيدة تعكس ذات الشاعر المنتمية إلى عصر تسود فيه ثقافة الحب والارتحال لرؤية المحبين ، وغلبة الظعن على القاطنين فلا استقرار مستديم ، وعادة القوم من الالتفاف حول القباء سمراً وأنسًا وحراسة كل تلك الثقافة لم تك مجلوبة موضوعة على القصيدة ، بل إنها

---

١) المرجع السابق صـ ٣٩٤ .

٢) الديوان صـ ١٨٦

ثقافة العصر ومرآته ففي نزعة امتزج الشغف ، والتهور بالتعالي ، وإحساس بالذات يقص عمر ما كان من أمر تلك الليلة . فالرائية قد لفتت نظر الكثيرين لتلازم الأصالة والإبداع فيها، إذ وجد عمر وشائج جديدة بين ذاته وبين عناصر العمل الفني ، فكانت الرائية بمكوناتها الوجدانية ،والمعنوية ،وصياغتها اللفظية تتناسب مع المبدع ، واستطاع عمر إحداث موائمة بين مخزونه من الأُطر القديمة – من السرد ومسار الأحداث – وما يتطلع إليه الشاعر إذ نزع إلى الجديد ، وتحرر من كثير من القيود التي كانت تحول دون حيازته الطرافة ؛ فنجد التطور في القيمة المعنوية ، والتقاليد الفنية وهو يفكك مخزونه الثقافي في شتى الميادين اللغوية، والأسلوبية، والأدائية، ويعيد تشكيله، فجديده ذو جذور تمتص من القديم وتستحيل شيئًا جديدًا من العناصر المستجدة التي تخالطه " إن عمر كغيره من الشعراء ، كان وافر الحظ من فهم ذلك التراث القديم واستيعابه والإفادة منه بل والتأثر به دون تقليد محض ، وسرقة صياغة؛ إذ الفن عامة ،وفن الشعر خاصة لا يكون في الفكرة، ولا في المضمون للشكل ، ولا في إخضاع التجربة للصورة اللفظية ، أو لأى صوره من صور الفن [١]

ونستطيع أن نشير في عجالة لبعض سمات الرائية إذ تجلى في أبياتها سمات شعر عمر بن أبى ربيعة بشكل بيَّن الألفاظ الإسلامية: كلاك يحفظك ربك المتكبر ..إشارة إلي اسم من أسماء الله الحسنى

الإشارة إلى بعض العادات العربية : عدم دخول الرجال على النساء مما دفعه أن يدخل متخفياً خلسة ، ويخرج متنكراً صريحاً مستجيبًا لما أوجبه المجتمع من غض الرجال والبعد عن منتقبات

١ قضايا النقد الأدبي والبلاغة صـ ٣٩٩ د/محمد زكى العشماوى دار الكتاب العربي اسكندرية ١٩٦٧.

النساء .

خصال اجتماعية : إلقاء التحية ... فحييت إذ فاجأتها،

الثناء الخفي على الزوج لقيامه بواجباته ...ووال كفاها كل شيء يهمها النص على نخوة رجال القبيلة ومعاداتهم لكل غريب يريد لقيا نسائهم .

وحينما عقد العزم على التنقل بحثاً عنها ، وما يقتضيه من حركة وقلق تقلقلت ألفاظه ..غاد – مبكر– رائح –مهجر– سُرى الليل –الهجر – يضحى – يخصر –أشعث – أغبر ... الخ

وحينما يصف مغامراته يلبسها ألفاظًا تثبت حذره ويقظته – رقيباً –على شفا– أحاذر –أنظر إليهم متى يستمكن النوم منهم

وحينما يصف مشهد استيقاظ القوم من غفوتهم نجد ألفاظًا تشع بالقوة – المؤقتة – وإثبات القدرة على المواجهة ، ومناجزة القوم والظهور لهم وليكن ما يكون " شجاعة أونزق وتهور "

أظهر المرأة العربية بصورة المترفة لفظاً صريحاً " وال كفاها كل شيء يهمها

وما يترتب عليه ..إذ فرغت للاهتمام بزينتها " أشارت بمدارها"

وكما ذكر ملابس النساء وأدواتهن – المطرف – الدرع– البرد– الدري يصف لبسه " الرداء المحبر" ، ويصف بعض الأدوات التي تستخدم في الحرب – المجن – " فكان مجنى دون من كنت أتقى " واستخدام كلمة المجن دالة على عقلية الشاعر الوثابة ، إذ استحضرها من الماضي وأسقطها على موقعه الحاضر ، فالمجن " الترس " الذى يقي المحارب طعنات الأعداء ، فالأختان كاعبان "مستديرتان الثدي " وكأنهما متقدمتان لتحميا الشاعر عن أعين القوم كبروز الثدي أمام الفارس ليحميه من الأعداء .

ويخاطب الرجل بكنيته " أبا الخطاب " والمرأة باسم قبيلتها

" هنيئاً لأهل العامرية نشرها "النص على اسماء بعض الأماكن "ذي الدوران – مدافع أكنان ، عزور ، النص على ديمومة الارتحال وما يستتبعه من نشر ثم طى الخباء ،والانتقال مبكراً قبل طلوع الشمس ، والامتثال للرحيل حينما ينادى مناد

" فما راعنى إلا مناد : ترحلوا وقدلاح معروف من الصبح أشقر

اصطحاب الأغنام ، – روح –غياب

وفى الأساليب

نجد التوازن بينً.. بين استخدام الأسماء والأفعال ؛ فعبرت الاسماء عن الاستمرارية والعادة غاد – مبكر رائح – مهجر – ... ووقع على أفعال تتقاذف منها الحركة ،وتضج بالصخب – فقدت الصوت – غاب قمير– رَّوح رعيان – نوّم سمر –كذلك أفعال ينضح منها السعادة – بت قرير العين – أقبل –تقاصر طوله –يتقاطر منها الخوف والقلق –راعنى –كئيباً– ليس في وجهها دم – تذرى عبرة ..

وحينما أراد التعبير عن سفره وملازمته للتنقل وقع على ألفاظ أجادت الإيحاء بذلك . جواب أرض – أخا سفر – يضحى ويخصر .. وقد مال إلى استخدام الجملة الإسمية حين تحدث عن أسفاره وترحاله ؛ لتقرير استمراريته وملازمته للتنقل . " قليل على ظهر المطية ظله – واستخدم الجمل الفعلية بشكل أوسع إذ أنها تتناسب مع ذكر معانى المبالغة والسرد – تهيم – يسلى – تصبر– يتنمر يضحى – يخصر – زرت –رأت –

الإنشاء والخبر وردا في شعره إذ بدأ قصيدة آل نعم بانشاء " الاستفهام " للتقرير والتأكيد ..وقد يأتى الاستفهام على حقيقته أين خباؤها

، ؟ كيف لما أتى من الأمر مصدر؟ أتعجيل حاجة سرت بـــك ؟ كيـــف تأمر؟ وقد يكون الاستفهام للتقرير والتأكيد أهذا المُشهر ؟ أهذا المغيرى ؟ أهذا الذى أطريت ؟ وقد يأتى الاستفهام للاستنكار .. إذ راعهم تبـــدل حاله بما لا يتناسب مع شهرته كفتى وجيه فـــي القبيلـــة ، وقـــد يـــرد الاستفهام للتوبيخ والتأنيب ، ألم تتق الأعداء ؟ أهذا دأبك سادراً ؟ أمـــا تستحى أوترعوى أو تفكر ؟ وقد يأتي الاستفهام كذلك ورد صيغة تعجب .. وصيغة نداء ، وأمر على الحقيقة . ألكني إليها بالسلام ، أشر كيـــف تأمر ؟ أعينا على زائر ، أقلى عليك اللوم ، وقول نعم ، " فأنـــت أبـــا الخطاب ...وقول الشاعر مخاطباً إياها : يا نعم قوله . كل ذلك دار في فلك متناسب ما بين حالة الشاعر والمعاني المبثوثة فالقصـــيدة صـــورة نابضة بالحياة إذ يختار ألفاظًا تجسم الموقف المعاش وينتخب ألفاظًـــا متناهية الدقة – اللبانة – مصور– أنور – يمج– وغيرها مـــن ألفاظًـــا تفيض بالدلالة ولا يحل محلها لفظة أخرى .

الرائية والنزعة الذاتية

وبالرائية وضوح بيِّن للنزعة الذاتية ولاشك أن ثمة عوامل أعلت أُوار النزعة الذاتية، وأشعلت جذوتها فلا تنطفئ، " عمر كان يعيش عيشة الرجل المترف الذى أُتيحت له أسباب اللهو ووسائله ، لكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته ، وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية فهو يلهو ولكن بمقدار، وهو يصف ولكن بمقدار أيضًا [١] ،

فلأنه وحيد أمه ، وشاب ثري قرشي زاهٍ بشرخ شباب دائم ، وربما لما غذته أمه من الهيام به ، والتغزل في محياه نحى بغزله منحى جديداً، إذ شغله التغني بحسنه واستلفاته هيام النساء به ، وإعجابهن بشجاعته ووسامته التي قد تدفعه إلى التهور والنزق .

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أو ترعوى أو تفكراً ؟

حتى إن إحدى الشريفات أرسلت إليه مالاً وطلبت حضوره لتسامره هي وصويحباتها فأخذ المال ، وأحضر به لهن الهدايا وأعلن – اعتزازاً وكبراً – رفضه أخذ مال على الصحبة ثم سامرهن طويلاً .... مما يدل على أن "أشعاره فيهن كانت لفظية ليس غير " [٢]

، وقد ظهرت الذاتية جلية واضحة ؛ إذا سلك أحد سبيلين إما منولوجا داخلياً.... إذ ظهر صوت عال لذاته وهى تناوىء ذاته إذ يتحدثا .. هو ونفسه مجيباً عن التعجب الذي صدر إزاءه لسلكه طريق الارتحال ليصل إلى محبوبته ... ويتعجب رغم الهيام ، وشدة الشوق أنه لا جديد ... فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقر

١) أثر المرأة في الشعر الأموي صـ ٢٣٤

٢) المرجع السابق صـ ٢٣٤

فقد امتلك ذاتين ... ذات.. تتحكم فيها الأهواء ، وتخضعها فتغيب عن الوجود ، وذات واعية مدركة ؛ بل مستنكرة أُحصيت من أجزاء محددة تقرب من حسن التقسيم إذ قرب ""نعم" . إذ دنت ليس بنافع ، والنأى موجع لا يسلى ، ولا يملك مندوحة الصبر ، وما عاشق إلا ركد على إحدى الحالات هذه إما ينتفع بالقرب ... يرتاح في البعد ... في اليأس إحدى الراحتين ...أو يطوى ويصبر وحينما أدركت الذات الواعية الظاهرة إصرار الذات المغيبة الباطنة على المُضى قُدماً فيما انتوت واعتزمت بدأت في سرد المخاطر لتحجيمها وردها إذ إنها تعلم

إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيتها يتنمر

وتنبهت النفس المغيبة والتحمت بالواعية ، ونصت على ما ينتظرها. يسر لي الشحناء والبغض يظهر .

فقد أدرك ما ينظره ... وفطن إلى ما ينتظره ، ولتضخم الشعور بالذات ، يرى حتمية دوران حوار بين الغادات إذ ما رأينه وحدد مكان الرؤية ، وكأنه يلقي الغانيات أينما حل ، فانتخب موقفًا محددًا وأخذ يقص قصصه ، ونجد أنه انتخب من بين صفاته الكُثَّر الصفات التي يحب أن يذكر بها ... المُغيرى ... المطيري نعتاً – الذي لا ينسى – فهو يمتلك صفاتًا أُخر.. لكن هذا الموقف يقتضى النص على تلكم الصفات ، ونجد المونولوج الداخلي ينتقل من ذات الشاعر المُعجِبة ، إلى ذوات الحضور المعجَبة ، إذ يستطردن متأملات في ذلك الفارس إحداهما تنكر على الأخرى هذا الإعجاب والانبهار اللا متناهي ، والثانية تقر بحدة العلاقة وعنفوانها وأنها ملازمة معها .

ولا شك أن صوره، ونسقه الشعري المستمد من الحياة المعاشة والتى بثبوت معالمها وملامحها تثبت ذاتية عمر وعمقها .

والأنا عالية عند عمر ؛ لذا فإن محبوبته ما كادت تتمتم بكلمات مبهمات رداً على التحية بل كادت تجهر بها .

فحييت إذ فاجأتها : فتولهت وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

أريتك إذ هُنا عليك ألم تخف وقيت وحولى من عدوك حضر

فامرأة عمر.. أوشكت أن تنطق وتفصح ، ووصف هيئتها مما يدل على اطمئنانه وهدأته ، فقد تفرس ملامحها وهي تعض على شفتيها في استنكار متراجع ... فما تكاد تقول

أنت امرؤ ميسور حتى تقول أمرك أعسر ...

وتتساءل باطمئنان المتلذذ المتدلل .

... ألم تخف ؟ ... أتعجيل حاجة سرت بك ؟ ... أم قد نام من كنت تحذر، فوضعية جو التساؤل يوحي بفخر المحاور، وإجرائه حديثً في هذا الموقف ، المقتضي حدة الانفعال ، والرغبة في تنفيذ ما انتوى ، وإنهاء الموقف لكن لإحساسه بأن المُستهدفة – المُزاره – تستمتع بالكلام معه ، وتريد الإطالة استرسل في هدوء لوصف الموقف ، وكأن اللقاء يتم أمام الجمع في وضح النهار، وتثير العتاب ...فها هي في قمة استنكارها تدعو له – وقيت – ...مما يدل على حرصه على إظهار نفسه مرغوبا يخشى عليه حتى لو بكت الخاشية –المرأة المُهاجمة – في موقف ضعف يفترض أن تخشى على نفسها جر السوء. وفى الحوار.... الذى قصه باقتدار يظهر طرفان اجتمعا على فكرة واحدة وهى تبجيل المتكلم "الشاعر" وبيان رغبة الآخر" المرأة " في استمرار الموقف فما كاد يفصح لها عن سبب حضوره .

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى إليك ، وما نفس من الناس تشعر

ثم لانت وهدأت:

فقالت: وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر

وصرحت بتحكمه فيها، وإمارته عليها.

فأنت أبا الخطاب غير مدافع على أمير ما مكثت مؤمر

تقول الأولي

وقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

أريتك إذ هنا عليك ألم تخف وقيت وحولى من عدوك حضر

ثم يضفي الاستقراء الذى التزمه على محبوبته ... وكأنه يستبطن ذاتها فيعى ما قد يجول بخاطرها فيثبت ترددها ،وحيرتها في تفسير سبب مقدمه فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

وإجابته لتهدئة روعها ،وهو يفصح عن سبب وجوده

فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى إليك ،وما نفس من الناس تشعر قد روى برواية أخرى

فقلت : كذاك الحب قد يحمل الفتى على الهول حتى يستقاد فينحر البيتان دلاً على اندفاع المحب، وامتلاكه مقاييس، وموازين يوزن بها التصرفات تختلف عن باقى البشر ... فمعنى البيتين " أن قد يشعر الناس بالمحب فيؤذونه ؛ لكن شدة حبه تدفعه لاستهانة الهول ."

ثم يوضح أثر حديثه المطمئن عليها؛ إذ بث في نفسها الطمأنينة ، وكيف دعاؤها أن يحفظه الله ،

فقالت وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر

ثم وضح شعورها نحوه بإمارته عليها

فأنت أبا الخطاب غير مدافع على أمير ما مكثت مؤمر

فى ظرف من التيه بالذاتية يحكى رسيس الهوى المعكوس

فها هي ذى محبوبته تعلق به ، وتدعو له بعد بثه الأمن في

نفسها ، وأن ما ساقه إلى أن يتكبد تلك الصعاب والأهوال لم يك إلا عنفوان حبه ، وشدة عشقه فتتوسل إليه وتُعْلِمه أنه عليها " أمير مؤمر"

وبلغة السينمائيين ينقل المشهد وهو ما زال مستظلاً بمظلة حديث النفس أو الاستبطان، لكن استبطان المرتد إلى موروثه الثقافي يستمد منه العون ويفى لإرثه في الإطار والمحتوى ، إذ يتحدث عن الليل ، وللعربي مع الليل أحاديث طوال يقول عمر:-

فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

والملاحظ أنه في إثنائه على معيشتها تستكمل صورة أحادية لتفاصيل المرأة التي يعجب بها .. فهي دائمًا مترفة ناعمة ، تعيش في خفض العيش ورغده ، ولم نره يعجب بامرأة تنتمى لطبقة دنيا فمحبوباته دائمًا يتقلبن في النعم يقول ... مثنيً على معيشتها وجسمها

يمج ذكي المسك منها مقبل نقى الثنايا ذو غروب مؤشر

تراه إذا ما افتر عنه كأنه حصى برد أو أقحوان منور

وفى موروث عمر صورة محبوبة عنترة التي قال عنها

إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم

ويستكمل وصفها مستدعيً ما وقر في ذهنه

وترنوا بعينيها إلى كما رنا إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر

التفت متحدثًا عن نفسه، مظهراً ذاته بالمخطط الذي يلتمس طرق النجح، والمحتسب الخطوات ، لكن شعوره المتضخم بالذات دفعه للنزق والتهور، فبدى جسوراً أمام صاحبته أراد مواجهة أهلها كافّة، وكيف لا ؟ وهو الفتى القرشى المدلل الممنع لوضعه وقبيلته فما كادت تذكره بأن هدأة الكرى انجلت وأذَّن مؤذن بالرحيل حتى قال مستعليًا

فقلت أباديهم فأما أفوتهم وأما ينال السيف ثأراً فيثأر

لكنها بحصافة رفضت هذين الاقتراحين : لأن ذلك سيصدق ما أشيع

عنهما ، ويفرح الكاشحون ، وهنا ملمح يؤكد زهو الإحساس الذاتي لديه ... فهي التي اقترحت عليه اللجوء إلى الحيلة والتخفي لا هو، فهو يصرح برغبته في اقتحام المخاطر لكنها ترد قائلة .

فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح عدينا وتصديقاً لما كان يؤثر

فإن كان ما لابد منه فغيره من الأمر أدنى للخفاء وأستر

فهذا البيت لم يمط اللثام عما انتوت فعله ويؤكد أنه الفتى القرشى لا يلجأ للحيلة ؛ بل هي من كيد المشغوفات به .

ويرجع مرة أخرى يعلن بذاتية عالية النبرة رفضه للزمن ومروره السريع ، فالليل حقله الزمنى الذى ينهل فيه الملذات يعانده ويختزل وقته، وهو عادة طويل الأجل لم يك بقصيره من ذى قبل

فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

ويثنى على المكان متنعما بذكره فقد خلصت له اللذة بلا كدر.

ويالك من ملهى هناك ومجلس لنا لم يكدره علينا مكدر

ونجد قفزة إياب ؛ إذ آب مرة أخرى ينفرد بنفسه فبعد أن وصف جمالها ، يعود ليصف نفسه أن تلك الفاتنة ذات الخصال الفريدة لها نظرة آخذة وفى قوله " إلىِّ" قلب للعادة والمألوف في المجال الغزلى إذ إن المعتاد أن توصف المرأة بأنها ظبية تقبع في مكان جميل يُضفى عليها هالات من جماله وبهائه، لكنه أحل نفسه محلها، فقد نظرت إليه هي وكأنه هو لفرط حسنه وبهائه، ظبية ثم سكت عن أحداث وتفاصيل...

ثم أظهر إفاقتها من قوة اللحظة، فقد تنبهت الليل أن أوشك على الانقضاء فلم يتبق إلا أقله ؛ إذ أوشكت النجوم على التغور

فلما تقضى الليل إلا أقله وكادت توالى نجمة تتغور

وهنا تحديد شبه دقيق للفترة الزمنية ؛ إذ أن الوقت الذى أمضياه

معا قصير حقيقة لا تخيل ، فقد التقيا بعد غياب القمير...ونوم السُمَّار....ودار بينهما حوار استهلك وقتا.... ثم تصافيا....

فما كادت تنبهه لهبوب الحى حتى تنبه أحدهم مناديا للرحيل ، ولاح الصبح ويظهر شجاعته وبسالته من خلال التصريح برغبته وتحديدها وحصرها، إما بالانفلات من القوم أو محاربتهم بسيفه،

وهنا يظهر جزعها وخورها وحسن تصرفها ؛ لأن الحدث من اختراقه مخدعها وقضائه الليل معها راق لها، وهو نوع من إبراز الذاتية بشكل متوارى ؛ حيث أعملت ذهنها على إمرار الموقف بسلام رغبة في تكراره ، لذا رفضت فكرته ورأت أنها تفضحها وتؤكد أقوال الوشاه .

والقصة لابد أن تحوى مشكلة، وتبلغ قمة التأزم حتى يواليها الانفراج والفسحة وهو ما فعله ابن أبي ربيعة ،إذ ارتكنت محبوبته على أختيها ، وطلبت منهما المساعدة بعد إعياء الحيلة ، وهو ما ارتأته أفضل من رأيه بالمجاهرة التي يترتب عليها الانفضاح والمبارزة. وهناك ملمح ذاتى مجهول السبب إذ رصد وجه محبوبته وهى قائمة

فقامت كئيبا ليس في وجهها دم من الحزن تذرى عبرة تتحدر

فتلك الكآبة وتسرب الدم ، وانحدار الدمع مولد من الحزن ، لكن سبب الحزن مبهم فهل الحزن لفراق المحبوب، أم لانقضاء الموقف ؟

فتلك الشحنات التأويلية تحملها تفسير البيت ، وكلها تصب في انعكاس إحساس الشاعر بالذاتية ؛ إذ إنه مطمئن ، خالى البال ، بينما هي تعانى حزنً فائضً إذأ يرصد أختيها وعلامات ترفهما في الحلى؛ بل وفى حسن التصرف للخروج من المأزق

فقامت إليها حرتان عليهما كساءان من خز دمقس وأخضر

وعُدَّ هذا تمهيد للانفراجة، فقد اختزل النص وقت إعدادهم لتنفيذ ما انتوين ، وإحضارهن اللباس له وتهيئته للخروج ، سكت عن ذروة

التعقد وهي رهبة الجو المؤثر أثناء عملية المرور أمام القوم ومغادرة الديار

وقفزت الأحداث مشيرة إلى إنجائه هو، ونجاتهن بعد مجاوزة الحى

فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر

ثم بعد ذلك ينص على أنه تلقى نصائح منهن في إطار استنكارى

أما تتقى الأعداء والليل مقمر

أما تستحى أو ترعوى أو تفكر

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا

مما يدل على استمرائهن الأمر، واستحلائه فهن يردنه مضللاً للرقبة ، ويلم أطراف قصته آخرً فلم يتكرر اللقاء ، بل كان هذا اللقاء المثير الملئ بالأحداث المتلاحقة– اجتياز مفاوز– تركه القلوص بالعراء –انتظار هدوء الليل– اقتحام خبائها– لينها وسماحها– انتوائه المواجهة– رفضها لها ولجوئها للحيلة– تدخل شقيقتيها وتنفيذ الحيلة –نجاته وحمله لذكريات اكتفت بالدعاء الذى هو جماع الخير وهو إقرار بالخير الوفير الذى أصابه منها فبها يتذكر

فآخر عهدى بها حين أعرضت ولاح لها خد نقى ومحجر

وتصاحبه الذاتية فها هي ذي محبوبته بعد أن قامت كئيبة تستعين باختيها والدموع تتحدر من عينيها ثم ينقذن الموقف ،ويساعدنه على الرحيل دون أن يفطن إليه أحد تعاودها الدموع على خدها النقى ، يغبط بنى عامر على وجود نعم بينهم واستنشاقهم شذاها الفواح

هنيئاً لأهل العامرية نشرها ال ذيذ وریاها الذى أتذكر

وقد شكل البيت الأخير قافلة مناسبة للقصة ؛ إذ بعد تصعيد وتأزم منطقي جاءت انفراجه واقعية والمعروف أنه " لو اجتمع عنصر المفاجأة مع التسلسل المنطقي المعقول لكان هذا أفضل وأروع ، وعندما يصل

الكاتب إلى مثل هذه النهاية ينبغي أن يتوقف فوراً " (١)

وتشع في الأبيات ألفاظ لونية

ثم يصف .. رحلة الإياب ، وناقته مما يشير إلى ثقافته البدوية واستدعائه صور الماضي التليد، فنظائره وأشباهه القدامى من الشعراء المحبين يجتازون البيد، مرهقين من تقلبات الأجواء، وقسوة الصحراء ، وهو رغم أنه حضري و صاحبته ترفل هي وشقيقتيها في النعم إلا أنه ابتدأ بذكر الصحراء ، واختتم بها، ولكنه لطيف؛ إذ شاركته ناقته العطش والتوق إلى الري فالمياه يعتلى العنكبوت مجاريها ليست صافية نميرة ، بل راكدة ضحلة ، فهو وهى يتوقا إلى الري

هل هذه القصة وقعت حقيقة أم خيالاً ؟ لن يستطيع أحد الحسم في ذلك بل إن عمر قد أجاب حين سألته " فاطمة بنت عبد الملك " عن شخصيات شعره ، فأجاب بأن ذلك لم يكن عن قصد منه ، ولا في جارية بعينها، إنما هو شاعر يحب الغزل ويحب القول في النساء " (٢) التحمت الحقيقة والخيال في إبداع الشاعر فشكلتا لُحمة الإبداع ، وسُداه، وتبين استحالة الفصل بينهما إلا أنه قد يظهر الجانب الخيالى فيغلب أو تزهو الحقيقة فتكتسح ،يقول جبرائيل جبور: – " ولسنا نزعم أن أخباره كانت كلها اختراعًا ، أو أن أشعاره كلها كانت كذبً ولكننا نريد أن نقول إنه تفنن فيي الكثير من أشعاره تفننً أبعدها عن الواقع ولم يكن الشعر مرة مصدراً راهنًا (٣)

١) نظرات في القصة القصيرة حسين قبانى صـ ٤٤ سلسلة كتابى دار المعارف ع ١٢٥ .

٢) المحاسن والأضداد للجاحظ صـ ٢٠٠.

٣) عمر بن أبى ربيعة –عصره – حياته –حبه –شعره ج٣ـ صـ٢٨ دار العلم للملاين بيروت ١٩٧٩.

المواقف الغزلية العمرية

عمر بن أبى ربيعة ذلك الشاعر الذي عاش في البيئة المترفة بالحجاز، وما فرضته من رقة ولهو ومجون، نتيجة لسمة الحياة من الثراء الفاحش، والفراغ اللامتناهي ،والجمال المحيط ، فظهرت الرغبة في الترويح عن النفس بمختلف الوسائل من نظم الشعر ، شيوع الغناء هتك الأستار والحُجُب ، القيام بمغامرات واجتياز الفيافى ليلاً ونهاراً لنيل المبتغى من الطرائد ... ظبيات إنسية أو حيوانية مدَّه في التعبير عن كل ذلك ورصده... طبع موات ؛ إذ ينساب الشعر من فيه بلا عناء ، وثروة لغوية ثرة تنضح بمخزونه الثقافي ، ولفظ يتناسب مع التجربة الشعرية ،واستمرارها . والذاتية تتبدى في إبداع عمر كافة .. من فخر أو رثاء لكنها في الغزل بينة واضحة ، إذ كان له منهجًا به توهج في الغزل ، وبان واتضح في تفرده وتعبيد ذلك الطريق ، فهو وإن كان أفاض في أغراض أُخرى إلا أن سمته الشخصي ، وبيئته المُنشِئة ، وثقافته الشخصية ، ونهج حياته ظهر جليًا في غزله أوضح من أغراضه الأخرى .

وشعر عمر .. متشعب المنافع .. فمن أراد أن يطَّلع على الحيـــاة العامة في العصر الأموي بما فيها، ومن فيها ، يطلع عليه ، فإذا مـــا اتجه نحو الخصوصية ليطلع على حياة المرأة الأرستقراطية آنذاك ، أو المترفين فيطالعه ، ومن ابتغى رصد الاختلاف البيَّن بين الشـــعر قبـــل عمر وفى أثناء وجوده مع شعراء آخرين إذ تمايز منهجه عن مناهجهم فليطالعه ، ومن أراد استبانة العلاقة بين قطبـــى المجتمـــع – الرجـــل والمرأة – في تلك الاونة ليطالعه

ولا شك أن لِمولده لأمة غريبة عن الديار، وما أفرطته عليه من تدليل ، واهتمام ومداعبة، وغرسته في نفسه من حتميـــة أنـــه مَحْظِـــى بالرعاية كلها، مقتنص ما يريد، كان له شأن كبير، في توجيه موهبتـــه الشعرية وجهة منفردة .

إذ نجد هُيامه بنفسه، وشعوره بذاته، ويسقط ذلك على مختلـــف الأشياء حوله ، فالبيداء المترامية حاولت هده وابتلاعه ، لكنه عصـــي على الهضم فاجتازها وقهر المفاوز .

أخا سفر جواب الأرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر"(١)

قليل على ظهر المطية ظله سوي ما نفى عند الرداء المحبر

فقد نحفت عظامه حتى نحف ظله .... مما لاقى وكابد في مغامراتـــه ومع ذلك لا يسلى التنويه على كرمه وفيض عطائه حتى في محنته

وباتت قلوصى بالعراء ورحلها ..... لطارق ليل أو لمن جاء معور

فقد بيت العزم على الرحلة ، والوصول لهدفه واجتياز الصعوبات كافة .. ولأن شخصية عمر شخصية ذات أرومة قرشية رفيعة ، فـــإن مقولة (أي حق رفع وأى باطل وضع) التي قيلت يـــوم ولادتـــه ثـــم شاعت، حازت دلالة صدق فهما وإن كانا حجـــازيين قرشـــيين إلا أن الأول "عمر بن الخطاب" الخليفة الثاني الفاروق الذي تتقدم لديه الرؤية

١) الديوان صـــ١٨٤ .

الجمعية النافعة للإسلام ، والمسلمين وتتأخر الرؤية الشخصية والمنفعة الذاتية ، أما عمر فتتقدمه النظرة الشخصية الراغبة في اقتناص المتع ، وحيازة الملذات مجلس ... غناء ... نساء.. وتتراجع في ذهنه المنفعة العامة ، بل أقبل على قول الشعر الذي يهتك به الحُجُب حتى إن هناك رواية عن" ظبية "مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب " حين مرت بعبد الله بن مصعب – وهى تدخل منزله – بفنائه ومعها دفتر فقال : ما هذا الذي معك ؟ ودعاها فجاءته وقالت : شعر عمر ابن أبى ربيعة . فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ! إن لشعره موقعاً في القلوب ومدخلا لطيفا لو كان شعر يسحر لكان هو ؟ فأرجعي به

فقد قصد عمر أن يكون شعره نفاذً إلى القلوب سابيًا الأروح

وقد حازت قريش بنسبه إليها النبوغين ..النبوغ السياسي ... والنبوغ الفنى

المرأة .....لم تنقطع أسباب التقاء الرجل بالمرأة

لكنها اختلفت اختلافًا بينًا ، فهي وإن كانت في العصر الجاهلي نظرة عجلى سريعة يطوى كل منهما بصره وبصيرته على حسن المرائى المنكفئ على هيام ولوع ، إلا أن العصر الأموي بما اتسم به من حرية كفلت التقاء الرجل بالمرأة ، وبحبوحة في تبادل الأحاديث ، بل الاستماع إلى بعضهما البعض .. كلامًا أو يستمعون إلى ما تجيش به أنفسهم غناءً وشدواً كما يروى عن "عمر بن أبى ربيعة " وليلى بنت الحارث البكرية وكانت ذات حسب وفضل ، لقيها عمر فقال : جعلنى الله فداك عرجى ههنا أسمعك بعض ما قلته فيك ، فقالت : أو قد فعلت ؟ قلت نعم ، فوقفتْ حتى انشدها

ألا ياليل إن شِفاء نفسى نوالك إن بخلت فنولينا

وقد حضر الرحيل وحان منا فِراق فانظرى ما تأمرينا

فقالت أمرك بتقوى الله وإيثار طاعته وترك ما أنت عليه . [1]

وإذا كان "العرجى " "وابن قيس الرقيات " قد مسا هذه الناحية إلا أن عمر بن أبى ربيعة استكمل الناحية الفنية ؛ إذ حوت قصائده .. العناصر التي يتألف منها الحكى من شخصيات ، تحديد عنصرى "الزمان والمكان" ، العقدة ، الحل ،الحوار .... ذلك الذى تعددت أشكاله فقد يقف البيت على حوار موجه من أحد الشخصيات وتليه أبيات تتعلق به ، في جمل قصيرة كاشفة وجهة نظر المرأة ، وما يعتلج في صدرها وما يخرج منها بحيث يلتحم المتلقى معه – كقائل ويطلعه على دقائق وخفايا محبوبته ، وهو اتجاه ممتد العمق إذ وجد في العصر الجاهلي عند إمرىء القيس حين قال مستنكرًا اعتراض محبوبته

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والحوار عند عمر ليس حلية لفظية ، وإنما شكل أحد عناصر التجربة العمرية الفريدة ؛ إذ نقل إحساس المرأة المبعثر ما بين رغباتها وضوابطها؛ فهذه المنتزعات التي تذهب معشوقاته كل منزع في ظل تكبيلات المجتمع – التي تراخت في العصر الأموي – التقطها ببراعة عمر وسكبها في أبيات تجلى نفسية المرأة ، وبراعة الصائغ " وهو ماوضحته في رائيته التي تناولت بعض أبياتها.

١) الشعر الأموي صـ ١٤١.

ظاهرة فنية

يسيطر على القصيدة الصراع الدرامى c o nf lictdramatic مناضلة بين قوتين متعارضتين ينمو بمقتضى تصادمهما بالحدث الدرامى " (١)

وفى القصيدة صراع تصاعدى – وإن لم يتم –وهو الذى يضفى ظلالاً من الحداثة والجدة على إبداعه فالصراع هو لب الدراما وجوهرها " وخاصيتها اللازمة ، فالدراما دائماً تعنى بإبراز ممارسة الإنسان لإرادته في صراعه مع نفسه ، أو مع آخرين، أو مع بيئة، أو مع القوى المحيطة به ، ومن خلال عرض هذا الصراع بين هذه الذوات ، نستطيع أن نستكشف صفاتها وأبعادها النفسية " (٢)

والصراع ههنا مطروح لكنه لم يُفعل ولم يتم

قلت أُباديهم فإما أفوتهم .. وإما ينال السيف ثأراً فيثأرُ

والبيت يشير إلى نزق عمر وطيشه اللذَين دفعاه إلى إرادة مواجهة القبيلة بأسرها، والصراع مترامى الأطراف خفيَّ من جانب ،جلى من جانب آخر، فعمر يريد أن يخرج متباهيًا بفروسيته ، ووضعه في تهور يدفعه للتصادم مع القبيلة بأسرها ، أما محبوبته فهي تؤثر الستر وعدم الظهور وتتحاشى التصادم وتتوصل لحل أمثل

فإن كان ما لابد منه فغيره من الأمر أدنى للخفاء، وأستر والطرف الثالث " الشقيقتان " شخصيات ثانوية أو مساعدة ،رأيا أن الأزمة بسيطة وحالا بين البطل " عمر " وتحقيق الصراع

---

١) معجم المصطلحات الدرامية مسرحية د إبراهيم حمادة دار المعارف صـ ٦٣ ١٩٨٥

٢) ف. أما ثيش – ت. س. إليوت الشاعر والناقد ت إحسان عباس مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت نيويورك ١٩٦٥ ص٣١٩

يقوم فيمشى بيننا متنكراً فلا سِرنا يفشوولا هو يظهر

ولما يطرحا هذا الرأى حتى أنبتاه وأعلنتا استهجان تصرفه فقد اكتملت الرؤية عند الفتيات الثلاث من حتمية استبعاد الصراع المشير لشخصية عمر المتفاخرة النزقه

فقلت أُباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثاراًفيثأرُ

لكن هذا الاشتباك وجذوة هذا الصراع أخمده الفتاتان برأيهما ، وإن كانت رغبة عمر أظهرت طويته، فهذا الصراع " نوع من التوتر الداخلي يساعد على نمو الحدث ، ونستطيع من خلال هذا النمو أن نستكشف أبعاد الموقف الداخلي الذى يعانيه الشاعر ، والذى يعتبر في هذه الحالة إحدى وسائل الشاعر في التعبير عن انفعالاته في صور فنية لها أثرها العميق "[١]

القصيدة ارتدت ثوب القص من المبتدي إلى الخاتمة وإن كان أغفل كيف تعرف" نعم " ولا أين ترتحل، وكونها من الثريات المترفات ، هي وشقيقتيها ، لا يصوغ وجود أقارب ضامرين الشر للشاعر يرصدون الفتك به ، لكن إحساسه الذاتي وعلو وتيرة "الأنا " جعلته يعتنق فكرة أنه جدير بتنفيذ رغباته ؛ باقتناص ملذاته، وبذل ما يبذل من تعب ورهبة ، وتحوط حتى ينال مبتغاه .وعمر يعتقد أنه على صواب في اجتيازه الفيافى ، واختراقه مخدع محبوبته ، فقد أراد أن يلقاها وما اراده هو الصواب ، وفكرة الصواب ها هنا تشتجر فيها " قيم العصر " " وتصورات العقل " لكن الشاعر لا يعبؤ بما يدور في عقولنا ، أو يجول في خواطرنا الآن فهو ابن مجتمع تلتبس فيه كثير من المفاهيم من

١)المواقف الأدبية د محمد غنيمى هلال صـ٣٨ نهضة مصر ١٩٧

وجهة نظرنا، وهى من وجهة نظره يكاد ضوءُها يكسر العين " "(١)

وعمر... تفرد بهذا المنحى فهو وإن واكبه مدارس تغزلية متعددة تظهر وَلَه الحبيب بمحبوبته ومحاولاته المستميتة لاسترضائها وذكر محاسنها ، وخصالها المنفردة ، ورصد حاله وكيف أن الحب أضناه ، ولواعج الهوى أسقمه ؛ لكن عمر أبي ربيعه ينص على خصاله هو وما تفرد به وتميز ، مما دفع الحسناوات إلى التغزل به والنص على تمنيه بل، وملاحقته ليفزن منه بالمراد ... قالباً للعادة ،

فالعادة أن المرأة هي المطلوبة المُطَاردة المُلاحقة ، لكنه جعل نفسه هو المطلوب الملاحق .. مما دفع بعض النقاد – العقاد شوقى ضيف شكرى – تفسير ذلك بأن نشأته النسوية مع أمه وتدليلها المبالغ له انحراف به عن مناط الرجولة الجازمة وما تقتضيه من قوة في ذاته وضعف تجاه محبوباته .

وعناصر القصة تكاد تكون متوفرة بشكل كامل من وجود شخصية رئيسة هي الشاعر المحرك الأساسي للأحداث ، حتى تدور الشخصيات كلها متلقفة تصرفاته فتكون تابعًا لها، وردَّ فعل لما يقوم به ، يليه شخصية المحبوبة نعم ، وهناك شخصيات أخرى ثانوية مساعده من الأقارب المتحفزين الضامرين الشر والشقيقات .. ولا ننسي راحلته التي كان لها دور عظيم في اجتياز المفاوز وقبوعها حتى قضى وطره ثم حمله مرة أخرى وتوصيله للديار ...

ونجد النص على الزمان والمكان ، فالمكان "مدافع أكنان "

والإشارة إليه متشظية في القصيدة من وصف لكل أجزاء المكان ،

---

١) جماليات المكان غاستون باشلار ت– غالب هلسا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ط ٢ صـ ٣٩ ١٩٨٧

بما فيه ومن فيه ، والتلازم بين الزمان والمكان عميق الجذور ، فالزمان يحدد أبعاد المكان ، بينما المكان يحتوى الزمن . فالمكان في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها يحتوى على الزمن مكثفاً .... هذه هي وظيفة المكان " والحركة هنا منشطرة... خارجية منجزة متحركة ... حركة السير ليلاً ، حركة داخلية رتيبة ثابتة نفسية ناتجة عن الترقب والحذر. (١)

والزمان هناك دمج للزمن في قص عمر إذ يدمج الماضي بالحاضر بالمستقبل لكن الوقت ها هنا : استغرق ليلًا فنهارًا فليلًا في مغامرة " ليلة ذي دوران "

إذ ارتحل من دياره نهاراً ووصل ديارها ليلًا وظل معها حتى لاح النهار، وفارقها نهاراً وارتحل ثم ارتحل ... والعقدة في القصيدة مزدوجة فالأولى هي دلوفه خباء محبوبته ، والثانية مغادرتها ، الأولى حُلت بسماحها بعد رهبة بمكثه معها ، والثانية حلت بتدخل الكاعبان وإيثار الجميع الستر وأخذ طريقه ، ومن يتأمل الصورة الشعرية ها هنا .. يلمس جديتها وحداثتها إذ حوت لغة طيعة تمس الحياة اليومية بمقتضياتها ، وتفاوتت الصور البنائية ما بين جديد مبتكر ، وقديم متبع، وإن وضحت بصمة عمر ونهجه على كلُ، ويظل للحوار البريق الأخاذ إذ مران ممتد تسكب فيه أحاسيس الشاعر وأحداثه ، أفكاره ، وتصرفاته ، ورؤاه في شكل حوارى يفصح عما خبُأ وخُفى ، وكأن الشاعر يدرك من نفسه هذه الطاقة والقدرة .

والقصيدة نالت شهرة واسعة وورد ذكرها في كثير من كتب .

١) شعرنا القديم والنقد الجديد صـ ٢٤٩ د وهب أحمد رومية عالم المعرفة ٢٠٧

وإذا كانت القصيدة العربية ذات طبيعة خاصة استمدت خصوصيتها من خصوصية ناظمها، فإن الرائية ذاعت واشتهرت وتناولها الكثيرون بالدراسة والتحليل ، إما منفردة أو أو في إطار دراسة شعر الشاعر ، أو في دراسة عصره ، أو دراسة سمة أدبية بدت واضحة فيها .

وهى تتضح بالبناء الدرامي المتنامي شأنها شأن معظم إبداع عمر الراكن إلى القص والحكي ، ساعده في ذلك الطبيعة بنواقضها حياة وموت ، جفاف ومطر، رياح وسكون ، ... الصحراء وما فرضته على قاطنيها من الفروسية .. الخلقية – الصفاتية – الحيوانات المستديمة– المطايا – ، أو التي يمر بها الشاعر ، أو تجربة الحب ، أو تجربة البغض وتوابع كل منهما ، ... التوقيت والنظم الحياتى المفروض على العربي من تتابع .. الحل والترحال الانتقال والبقاء ، الوصل والهجر .

كل ذلك جعل إنتاج عمر نبت عصره ، مولد من ظروفه ، واتجاهاته البيئة المحيطة به بالإضافة إلى السمات الذاتية التي حازها .

- الوحدة العضوية تحققت بفاعلية في كثير من نتاج عمر إذ يصعب تقديم بيت على آخر
- زخرت أعماله بالصور الفنية ما بين تشبيه استعارة وكناية مما أعرضت عن تفصيله لوضوحه

استخدم الشاعر الراء المضمومة روياً للقصيدة ، والضمة حركة تشعر بالأبهة والفخامة ، وحرف " الراء " دال على القل والاضطراب بما يتناسب مع الحالة النفسية والمغامرة ، فالحذر والقلق والتوتر يلف الشاعر لذا وقع على الراء التي حملت تلك الشحنات المكثفة من القلق المتوالي وألفاظه في الرائية تتناسب مع تلك الحالة فقد استهل القصيدة

حزيناً لبحثه عن نعم التي لم ينساها ، ولم تبلغ حاجته منها فنجد ألفاظه ينساب الحزن منها تهيم – الشمل جامع – الحبل موصـــول ، القلـــب مقصر – تأباها – يسلى –أنت تصبر

وهناك تضمين محمود في البيتين

فبـت رقيبـاً للرفـاق علـى شـفا أُحاذر منهم من يطوف وأنظر

إليهم متى يستمكن النوم منهم ولى مجلس لولا اللبانة أوعر

فلا يكتمل النص في البيت الأول إذ كلمة " انظر " يكتمل معناها بالبيت التالي والتضمين " قد يستحسن وقوعه إذا كان الشعر قصصاً آخذ بعضه برقاب بعض "[١]

وفى حياته بشكل عام نشاط تغزلي لا يكل، فغناه وشكله شـــكَّلا جـــواز مرور للنساء، ينتقل بينهن متغزلًا فيهن أو مُدلا عليهن، مقبلاتٍ عليه ويستثمر موسم الحج فيلتقي النجائب والحرائر وينشـــر غزلـــه ويلـــم إعجابهن يقول :

ليت ذا الحج كان حتماً علينا كل شهرين حجة واعتمارا

ومع ذلك فهو ذو ذوق رفيع لا يقبل إلا على شخصيات شـــهيرات ذوات جذر في الأصالة عريق "سكينة بنت الحسين ، فاطمة بنت عبـــد الملك بن مروان " ،عمرو البكرية ، وغيرهن وهو يهوى مجالس السمر وأحاديث الغزل يقص القصص ويسمع ما يستطاب من الحديث وشعره قطعة من حياته إذ يتبدى فيه تجسيدًا لحياته العابثة ، فيصور في شعره " بعض صور من ذلك اللهو والعبث يؤكد لديهم امتزاج السلوك بـــالفن

١) خصائص شعر الغزل عند عمر بن أبى ربيعة الرائية أنموذجاً صـــ ٦٩ دار ناشرى للنشر الإلكتروني د عبد الحكيم الزبيدى ٢٠٠٧

والحياة العملية بالشعر – ولأول مرة نجد الشاعر " شخصه " هو موضوع شعره الدائم النص عليه " الأشعار التي تعد قافلة للموضوع ، كلها مختزلة قليلة اللفظ لا تتناسب مع المجهود المبذول لتحصيلها كنهاية [١]

قل للمليحة قد أبلتنى الذكر فالدمع ، كل صباح ، فيك يبتدر

فلثمت فاهاً آخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

–فبت قرير العين . أُعطيت حاجتى أقبل فاهاً في الخلاء فأكثر

– فبت ألثمها طوراً ويمنعنى إذاتمايل عنه ، البرد والخصر

اعتنق عمر مبدأ المكافأة فعمر قد يميل إلى مبدأ مكافأة المحبوبة فيتكلم عن حبه وعن حبها عن حالته وحالتها ، وهذا مرجعه إلى إعجابه بنفسه أيضًا فهو لا يتهالك في حبه ولا تسقط نفسه شعاعًا يقول

فإن تصلى أصلك وإن تبيننى بهجرك بعد وصلك لا أُبالى

فقد يتكلم عن حبهما المشترك يقول . [٢]

بنفسى من أشتكى حبه ومن إن شكا الح لم يكذب

ومن إن تسخَّط أعتبته وإن يرنى ساخطاً ، يُعتب

ومن لا أُبالى رِضى غيره إذا هو سُر ولم يغضب

ومن لا يطيع بنا أهله ومن قد عصيت له أقربى

ومن لو نهانى من حبه عن الماء عطشان لم أشرب

ومن لا سلاح يُتقى وإن هو نُزل لم يُغلب

أو يتحدث عن لوعتهما معاً عند الفراق

ولقد حفظتُ ، وما نسيت مقالها عند الرحيل : هجرتنى، حبى!

---

١) شعرنا القديم والنقد الجديد صـ ٢٤٩ د وهب أحمد رومية عالم المعرفة ٢٠٧ .

٢) الديوان صـ ٦٢ .

وقد يسترسل في وصف حزنهما الشديد في لحظة الوداع

قالت : تشيعنا ؟ فقلت صبابة : إن المحب لمن يحب مشيع [١]

فاسترجعت وبكت لما قد غالها إن الموفق ،فاعلموا مسترجع

فتبعتهم ومعى فؤادى موجع صب بقربهم ، وعين تدمع

= تكلم عمر عن الأطلال وأهلها مستعملاً

التراث اللغوى " فالشعر زينة الفنون وقد احتل هذا المكان الراقى عن طريق الأداة وهى اللغة ، ولم يكن له أن يصل إلى هذا المستوى الرفيع دون أن يتمتع الشعراء بموهبة خيالية تمكنهم من السيطرة على ألفاظ اللغة حتى تغدو عجينة طبيعية في الإبداع والتصوير [٢]

واللغة لم يوضع لها معالم ثابته في هذه الآداب ، وإنما كانت اللغة تراثًا مشتركًا معروفًا للعامة والخاصة في ذلك الحين ، وكان أكثر الشعر المروى أو المنشد لا يتجاوز ما هو معروف ومألوف [٣] ، لجأ عمر إلى السهولة ، والألفاظ قريبة الدلالة والمعنى ، والتراكيب اللينة فهو يريد أن يحاكى القطاع الأكبر من الناس وأن يُذاع شعره ، لذا عُد اللفظ العمرى حدًا فاصلًا ؛ بين عهد البداوة والتحضر من الناحية اللغوية ، فألفاظه تشهد على ذلك ، فقد هجر كل ما هو بدوى واستبدله بكل ماهو حضرى ، أو لعله طوع بعض الألفاظ الجاهلية واستأنسها في شعره بل استخدم التعابير والألفاظ الشائعة ، وَبعُدَ عن التكلف

---

١) الديوان صـ ٣٤٤

٢) الصورة الفنية في شعر لبيد صـ١٢٢ .

٣) شعرنا القديم والنقد الجديد صـ ٢٤٩ د وهب أحمد رومية عالم المعرفة ٢٠٧ ط (٢) دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث د بدوى طبانة طـ ٥ مكتبة الأنجلو المصرية ١١١ص

والتقعير ، " فلم يقصد عمر إلى بُعد التناول وخفاء الإشارة واستطالة الطريق إلى المعنى ، ولا نعلم إن كان قد قصد إلى ذلك قصداً فسخر لغته في خدمة الغناء والحوار القصصى ، أم أملتها عليه حضارة عصره المستحدثة في خدمة الغناء ام كان هذا وذاك معًا "(١)

وقد عزى "ابن خلدون " في مقدمته سهولة لغة عمر إلى تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف. وقيل بل سبب سهولة لفظه ، إحجامه عن مدح الحكام فبرأ شعره من مستلزمات ذلك فبعد عن التكلف والتقعير ، وكان راغباً في شيوعه غناءً أورواية وهذا يتوافق مع منهجه ، إذ كان شعره يحوى حوارًا غالباً إحدى طرفيه المرأة ولأنه وثيق الصلة بالمجتمع النسائى فقد حوى حواره على التعابير والجمل الشائعة في المجتمع النسوى بما فيها من تقلبات في الأمزجة والأحوال .

ولارتباطه بالمغنيين كان يتصور شكل المغنى وهو يغنى شعره ، فيجسم أمامه أ ثناء النظم فيعهد إلى السهولة والتبسيط ويعزف عن التقعير والصعوبة فجاءت ألفاظه، وتراكيبه ، وعباراته بعيدة عن الإغراب والتقعير بسيطة سلسة خالية من التعمق طافية الدلالة لا غوص فيها ولا كد . فرأينا الديمومة لأشعاره والانتشار والخلود في رحلتها بين الآذان والألحان

١) مذهب عمر ابن ابى ربيعة ص٢٤٠

ــ يقول عمر: [1]

قل للمنازل من أُثيلة تنطق بالجزع ... جــزع القــرن ، لمــا تخلــق

حُييــت مــن طلــل تقــادم عهــده ... وسُقيت من صوب الربيع المغدق

وكأن الشاعر استلهم قول عنترة

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

ولغة عمر

الحوار عند عمر يلح فيه على محاكاة الحوار النسائى العــادى " الذى خلع على شعر عمر ما عرف به من الليونة والظرف "

وقد يطمث عمر العناصر المختلفة مضحياً بها في سبيل استكمال الحوار المراد

يحكى ما حدث مع النساء ويقص قصص تكالبهن عليه. بلغة سهلة بسيطة أقرب إلى اللغة العامية أو المألوفة سخرها في زينة الفنون وهو الشعر مما يعكس ثقافته ورؤاه ، وبها من الخيال مــا يســمح بتشــكيل الأشياء في علاقات جديدة تتعاون كلها على توصيل ما يريــد الشــاعر وإبراز فكرته .

الأوزان الشعرية عند عمر بن أبى ربيعة .

لازم عمر المغنين المميزين وقَلما رُؤى دون صــحبة أحــدهم فتبادلا المنفعة هو ينظم ما تميز من الشعر، وبأصواتهم وألحــا نهــم يشيع الشعر ويتلقفه المستمعون والمغنيون على السواء وقد أنفق عمر على بعض المغنيين ووطد علاقته بهم يقول:" د شكري فيصل" فــي ذلك " لأن صلة ما بين منتج الأثر الفني وبين الــذين يتوجــه إلــيهم المنشء صلة لها خطرها ، فهي التي توجه هذا الأثــر وجهــة معينــة تتلاءم مع الذين يتحدث إليهم ، وهى بالتالي تلونه بالذي يــروق لهــم

١) الديوان ص٣٧٣

وتعيش في مثل مستواهم اللغوي وأقدارهم التعبيرية

فعمر يتوجه بقصه المشعور أو شعره المقصوص إلى العامة ولمحبوبته والمغنين يقول

أصيح القلب مستهاماً معنى بفتاة من أسوء الناس ظناً
قلت يوماً وحركت العوه د بمضربها ففنت وغنى
ليتنى كنت ظهر عودك يوماً فإذا ما احتضنتنى كنت بطنا
فبكت ثم أعرضت ثم قالت من بهذا أتاك في اليوم عنا
لو تخوفت جفوة وصدودا ما تطلبت ذا لعمرك منا
قلت لما رأيت خللك منه بأبى ما عليك أن أتمنى (١)

وعمر بن أبى ربيعه يؤثر الأوزان ذات الإيقاع السريع لأنها تسمح بسهولة التلحين وسرعة الانتشار تجسد صورة أدبية لا نستطيع الجزم بأنها متخيلة أو حقيقية يقول د/شوقى ضيف :

أخذ شعراء المدينة ومكة من أمثال عمر بن أبى ربيعة يكثرون من النظم على الأوزان وافرة النغم من مثل : "الرمل–الوافر– المتقارب – الهزج –الكامل " ..وأجروا في الأوزان الطويلة كثيراً من التحوير والتجزئة حتى تصبح أكثر ملاءمة لألحان الغناء الجديد (٢) لكننا نجزم بأن الصورة الأدبية لديه متكاملة الأركان إذ أودع فكره – المسترجع – أو المخيل – ألفاظاً وصوراً استطاعت أن تنقل لنا نقلاً أميناً شحنات شعورية متدفقة ، صبها في أبياتها غذاها خيال مستمد من الواقع المعيشى أو المتبقي من إرثه الثقافي التراكمي المتواري ..

الغزل مادته المرأة، وكأنما أراد عمر للمرأة الحرية مثل الرجل ؛ وأن تفيد بخلالها الفريدة المجتمع مثل الرجل " كان يريد أن تزول الفروق

---

١) الديوان صـ ٥٨٥ .

٢) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني امية صـ ٢٥٠ دار المعارف الطبعة الخامسة.

بين الجنسين ، وألا يكون بينهما حجاب ، وكان كل شيء في حياة عمر وسيلة إلى الإتصال بالمرأة وذكرها والتحدث إليها ولا سيما الحج (١)

والمغنيون والمغنيات يتوجهون بأنغامهم إلى المرأة ، لذا حرص عمر على الأوزان الخفيفة فتناول الأوزان الموجودة بالتطوير والتحديث.

تصوير جميل – مهوى القرط – كاعبان معصر . وشعر عمر يشيع فيه مغامراته الذاتية وإقباله على النساء وشغفه بهن ،

لكن لا شك أن طريقة صوغه لذلك وارتكانه إلى جانب البناء الدرامي يسكب تجربته عازفاً عن النجوى الغزلية المباشرة ، كفيل بأن يمس الناحية الموضوعية بما يقارب القصة بشكل بين إذ لا يوجد نغمات خطابية جهيرة أولا تتناثر خواطر جزئية ولا فلذات مجازية شاردة لكن هناك تناميًا للخط الدرامي وتصعيدًا للحدث مما يدعم الموقف الشعرى ويغذيه .ومعظم المواقف الشعرية تدور في فلك متقارب فإما أن عمر يحدث نفسه بزيارة محبوبته ، أو يحدثه أصحابه بذلك ، أو ترسل هي رسول تدعوه للزيارة ، ثم يستعرض المخاطر التي يجتازها والفيافي التي يتخطاها حتى تتم زيارته بنجاح ، وهذا هو لب قصص عمر الذى يحكيه في تفاصيل قد تزاد وقد تنقص يثبت أو يحذف من قصيدة إلى أُخرى تبعاً لجو الحكي العام .

" ونحن حينما ننظر لإبداعه نقيمه من الناحية الفنية سمو غزله وعظم خياله وجميل صوره ورائق لفظه وبعده عن المثل الأعلى في فن الغزل أو قربه منه لا نحكم عليه من خلال مطابقته للواقع التاريخي او توافقه مع الخلق والدين

(١) " أثر المرأة في الشعر الأموي محمود عثمان سلمان رسالة دكتوراة صـ ٢٣٢.

الخـــــاتمة والنتـــــائج

الإرث الثقافي في العصر الأموي تجلى ، إما بشكل واضـــح ، أو شكل متوارى ، مصبوغ بصبغة العصر الذى كـــان لـــه خصوصـــيته، وفرديته ، التي فُرضت على –آلة الإعلام آنذاك الشعراء كافـــة – إذ سحبت الأجواء السياسية المظلة على كل من يتنفس في ذلك العصـــر ، ووضعت الدولة يدها فيه على كثير من البلدان المفتوحـــة بثرواتهـــا . وشعر عمر يعد مرآة لا قطة للحياة آنذاك ، وأهم عناصرها المـــرأة إلا أن ثمة سؤال يتبادر إلى الذهن : ما الذى دفع عمر إلى سلوك مذهبى ، يكاد يكون أُحادياً ؟ ولما لم يكن له أشباه ولا نظائر أو حتى رواد فيـــه مشوا على دربه ونهجوا نهجه ... !!! ؟ أرى أن ذلك مرجعه أسباب عدة نشأة "عمر بن أبى ربيعة "

فقد أبيه وغمر أمه له بالحنان ،وغشـــيانه مجـــالس النســـاء ، ، واطلاعه على شواردهن وواردهن زرفات وفرادى ، التـــرف والبـــذخ الذى شب فيه فنشأ مترفًا لا يرعى إلا حاله وبهاءه ، وذلـــك لمطالعتـــه على دخيلة النساء وتشبعه بمواقفهن وفكرهن إذ يتكالبن عليه إن رأينه ، إذ رأت كل واحدة في تشبيبه بها وحديثه عنها إطلالة على عالم الرجال من كوة تبغاها ، ألا وهى تشبيب فتى المدينة بها ، وهذا تبعاً لثقـــافتهن فخر ما بعده فخر ، ونجده في غزله لم يتبع أسلوب الجـــاهليين تتبعـــاً ممقوتاً ولم يبتدع نهجً جديدً دخيلً وإنما عمـــق المـــوروث الثقـــافي و استعمله استعمالاً مختلفً بالإضافة إلى ما تفرد به من التركيـــز علـــى الأوصاف المعنوية والنفسية وأظهرها ...مبغضة – محبة –مقبلـــة – مدبرة– فرحة – حزينة– بشكل جديد بالإضافة إلى ما امتاز بـــه مـــن تجارب شخصية محكية أضفت على شعره جدة وطرافة لافتة .

ولا شك أن صبوة الشباب والترف والمزاج الخاص لعمر كانا باعثين على سلوكه مسلكًا ما ، وعمر وإن كان يظهر بمظهر المنغمس في المتع ، المصور للذات المغَامرة إلا أن أحد الباحثين رأى ان عمر كان متأثراً بالمناخ العام المسيطر على الحجازيين وأرجع إلى ذلك وجود هنات حزن في شعره باعثة له على النص على الفراق والألم والفشل وكأنها لقطات حزينة في الصور البهية التي يحرص عمر على رسمها بكلماته ، وأرجع ذلك إلى الحزن وإن كان عمر امتاز بميزة ، فقد يتبدى الحزن في شعره بشكل جلى ، وكمن وراء إظهار المتعة والبهجة في شعره وقد يظهر حزنه – لتركيبته النفسية – في شكل استعلاء وسلوى انغمسا – ظاهريً– في المغامرات وإن اتخذ الفخر كخط دفاع لإخفاء نفسه الجريحة الفارَّة من الحزن العام المسيطر على الحجازيين بل إن عمر يظهر الخصومة بين الحجازيين والأمويين ،

فالناحية النفسية المتوارية دفعته لمذهب شعرى متفرد بدى واضحاً في منجزاته الشعرية وأكثر وضوحًا في رائيته، فموسيقاها من بحر الطويل ولطول البحر يستوعب القصص الشعرى بسمته وخصائصه وعمر ينوع في الموسيقى ، فتارة يصب تجربته الشعرية ف بحر الطويل وتارة أخرى يصبها في بحر قصير ونستطيع أن نشير إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث : –

تخصص عمر بن أبى ربيعة في الغزل – تقريباً– لكن غزله سلم من المجاهرة بالفحش أو الإلحاح على المعاني المكشوفة– على غزارة إنتاجه – أو استخدم عبارات فاضحة ، وأرى أن ذلك مرجعه لسبب داخلي وآخر خارجي ، أما السبب الداخلي لطبيعة شخصيته وهو قوة الإيمان والحرص على الالتزام الخلقي والديني ، وسبب خارجي، وهى

أن البيئة الحجازية وإن مستها يد التطور إلا أنها بيئة شكلت موطن الدعوة الأول فهي منبع الدعوة الإسلامية ملئت أقطارها بأولاد الصحابة والتابعين الذين شدوا لها الرحال ليسألوا عن أمور دينهم ، وأضف إلى هؤلاء الخواص أن عامة أهل الحجاز دأبوا على رعاية حق الفضيلة والخلق والدين ، بل إن الشعراء جميعاً راعوا تلك البيئة المحافظة ، أما ما جاء في شعر عمر بن أبى ربيعة فهو من ظرف الكلام ، وتهويل الشعراء المرخص من قِبل البيئات كافة ، طالما لم يمس الأعراض ، ويبتعد عن هجر الكلام ، أو أي انغماس في الغرائز الحيوانية ونقص الأخلاق والأعراف .

اكتملت القصة الشعرية في إبداعات عمر؛ إذ سارت في تسلسل دقيق قريب للواقعية رصد فيها أحوال نسائه ، وإشارتهن ،وسكناتهن ،وحركاتهن ،وحلَّل ذلك تحليلاً نفسياً تتبدى فيه ذكاء المجرب ،وحكمة الحريص في حبكة محتذية ،

تنوع أسلوبه ؛ إذ قد يتكلم مستنداً إلى الصراحة والوضوح ،وقد يلجأ إلى المواربة والكناية ولا ننسى أنه أول من اتبع نظام المراسلة ، إذ يرسل إما شخصاً أو صوتاً ليوصل لمحبوبته ما يريد . مما يثبت ذكاء المرأة العربية التي تتلقف المرسل في تيه وعجب بما نظمه الفتى القرشى فيها وإن لم يفعل تُبادر هي ، فترسل المراسيل معاتبة له على الجفوة أو حاضة له على التواصل .

وقد يلجأ إلى المغنين والمغنيات لإصلاح بعض المواقف المستعصية ، إذ يتم غناء صوت محمل بالرسالة تفهمها المقصودة . وقد فعلت هذا "جميلة "مع عمر "وسبيعة الشريفة العراقية "، إذ غنت ما قاله فيها عمر ،ثم زارتها سبيعة وكلما سمعت الأبيات يغشى عليها يقول

من البكرات عراقية تُسمى سبيعة أطربتها
من أل بكرة الأكرمين خصصت بردى فأصفيتها
أموت إذا شحطت دارُها وأحيا إذ ا أنا لا قيتها
فأقسم لو أن ما بى بها وكنت الطبيب لداويتها

فشعر عمر شعر غنائى استجابة لنداء نفسه أو لطلب إحدى صاحباته ، أو لطلب أحد المغنين وهو يعلم أنه في طريقه إلى مجالس الغناء ؛ لذا نجد موضوعاته تترى تلك المجالس وألفاظه سهلة فيها تآخ . –

الاهتمام بالتحليل النفسى وتصوير الحالة الشعورية ، عُنِيَ عمر في كل أبياته بتضوىء الحالة النفسية الشعورية للغازل والمتغزل فيها إذ دق لفظه ، ورقت عباراته ، وكثفت جملته ، فوصف حال المرأة منفردة ، ومع أترابها ، ومع عشاقها ، كذلك وصف حال الرجل في متواليات لفظية متطورة، ونلاحظ هذا في اللقطات التي سجلها عمر بن أبى ربيعة في شعره فهو يفيض في وصف ما تجشمه ،وما لاقاه، وعمر لا يكتفى بإطلاعنا على أحوال المرأة ، بل يميط اللثام عن ذاته ويثبت بعد خلاله وصفاته ، فهو شخصية ملولة متقلبة ، ويسجل لحظة لقيا محبوبته، والحوار الذى دار بينهما بتفاصيله ، وقد يصف لبستها وعطرها وزينتها ، ثم يمس لحظات متعته معها مساً لا يدخل في تفاصيل ولا يستقصي حديثً، بينما نرى شاعر جاهلى "امرأ القيس " يختزل كل الخطوات في كلمة " فلما تنازعنا أطراف الحديث "
ثم يوغل في فحش القول وقبح التفاصيل

تأرجح في توازن بيِّن بين إظهار الحالة النفسية المتوارية الخفية ، والحالة الظاهرية المبثوثة العلنية

إبداع عمر يغلب عليه التوليد ؛ إذ تحيط بقصائده أو مقطوعاته

إطاراً قصصي ثم يتفرع إلى قصص أُخرى فرعية تخـدم القصـة الأم وتوضح مبهمها

–العاطفة الآنية اتسم شعر عمر بحمله شحنات شعورية تزهـو بالصدق الفنى الآنى فهو من امرأة إلى أخرى، ومن مغامرة إلى أخرى، لا نستطيع أن نقول إن ذلك إنتهاجًا للنهج كما يفعل الشعراء القـدامى ، فإذا كان منهم من نظم الشعر استجابة لشعوره الصادق كبعض قصـائد "زهير" إلا أن الكثيرين منهم كانوا يحاكون الإرث الثقافي الذى تتكفىء عليه النفوس " النابغة " وغيره .

أما عمر فهو ينظم بانفعال وإدراك لحظـي إذ يخضـع للحظـة العاطفية التي هو بصددها ، فيغرقنا معـه فـي التفاصـيل ولا يهـتم بالتفاصيل إلا محـب ؛ إذ يصـف حركـات محبوباتـه ومجالسـهن واحاديثهن ، وإعراضهن ،وسماحهن ، إقبالهن وإدبارهن ، النزعـات الخفية ،والطرقات الظاهرة ، وإنما حددت بكون عاطفته آنية، إذ إنهـا ليست مستديمة فإذا ما علق امرأة وبذل الكثير ولم يتواصل معها لجـأ إلى غيرها ممن تسر تواصلها ؛ لذا هو يتحرك ويأبى الثبـات ، كثـرة مداهمته لصويحباته ليلاً ولم أجد تبريراً؛ أعبث ولهوً ؟ أم إيثاراً للسلامة ؟ أم طلباً للستر وقضاء الوتر .

–القص والحوار عنصران أساسيان في شعر عمـر إذ ظهـرت القصة بعناصرها ...زمان، ومكان ، شخصيات، عقدة، حبكة ، حـل، ولأن ذلك مصبوب في قالب منظوم استعلاه القصر ، فهي قصة قصيرة طوعت فيها العناصر خاصة الحوار يقول دصلاح الدين[١]

قلت من أنت ؟ فقالت : أنامن شـفه الوجـد وأبـلاه الكمـد

نحن أهل الخيف من أهل منـى مـا لمقتـول قتلنـاه قـود

١) مقدمة ديوان بشار للشيخ الطاهر بن عاشور

٢) اتجاهات الشعر في العصر الأموى٤١٧ :

قلت : أهلاً أنتم بغيتنا فتسمين ، فقالت أنا هند (١)

فقد امتاز عمر بالحوار وعده البعض مبتكراً له " (٢) وذلك لتكثير عمر له في قصائده كثرة مفرطة إذ بثقافة واقتدار يحشد ما يريد، ويصبه في لغة تقترب من لغة الحياة اليومية ، وجمله موحية يتفاعل فيها الحوار البين مع المنولوج الداخلى بشكل متنام ، يؤثر في تصعيد الأحداث وتغيرها، والمنظومة الشعرية متكاملة تؤدى الغرض منها . فلو أسقطنا منها شيء اختل البناء وانحلت المنظومة الشعرية وعمر في استعماله اللغوى متفرد والمعروف أن " قيمة الأدب في بنائه اللغوي فهو فن القول ، بمعنى القدرة على تركيب ألفاظ اللغة في طرق مخصوصة تمنحها الثراء في الدلالة والإيحاء وترتفع بها عن التعبير الحرفى إلى التعبير الفنى غير المباشر الذى يفجر طاقاتها في التعبير (٣)

– استخدم عمر المواقف الدرامية المتنامية فهي وإن وجدت قديماً عند الشعراء القدامى الذين لاكوها في إبداعهم من الوقوف على الأطلال ، – والتصريح بالهدف " لقاء المحبوبة " اجتياز الفيافى – إظهار البسالة والفروسية –إذ الروح التعبيرية واحدة –مع اختلاف أدوات التشكيل الفنى

–وقف أكثرية النتاج الشعرى على النسيب ،إذ انحسر الإبداع العمرى –غالباً – في الغزل الذى اشتهر به ، وها هو ذا "جرير " يجيب رجلاً سأله من أهل المدينة " يا أباحرزة، إن شعرك يعنى في الغزل رفع إلى المدينة ، وأنا أحب أن تسمعنى منه شيئاً ، فأجابه جرير " إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومى فالكثافة إبداعه في النسيب عُرف به وهو منحى فنى جديد أن يوقف الشاعر

---

١) الديون صـ ١٤٦

٢) الصورة الفنية في شعر لبيد صـ ١٢٢

إبداعه على تجربة غزلية سواء أكان بناؤه الفنى قصيدة مكتملة أم مقطعة وإذ كان "العرجى"" والحارث بن خالد المخزومى "أفاضا في قول الغزل إلا أن عمر بز الجميع

–الانتقاء اللفظي والانتخاب الوزنى كان موفقً دائمً فقد كان المغنون يتهافتون على شعر شعراء الحضر عامه وشعر عمر بن أبى ربيعة خاصة ليلحن ثم يغنى،

لذا حرص عمر على انتخاب اللفظ القليل الحروف الثرى المعنى الكثيف النغم ... ليسهل تلحينه وشيوعه بين الركبان ، فامتاز شعره بالأسلوب الجذاب ، والجملة البسيطة القريبة من الحياة المتداولة التي تستعصى على كل أحد إلا عمر بن أبى ربيعة يقول "د صلاح الدين الهادى "عن قول عمر : [١]

قلت من أنت ؟ فقالت : أنا مَن شفه الوجد وأبلاه الكمد

نحن أهل الخيف من أهل مِنى ما لمقتول قتلناه قود

قلت : أهلاً ، أنتم بغيتنا فتسمّين ، فقالت : أنا هند

إن هذه اللغة من السهولة بحيث تقرب من لغة الحياة العادية في موقف التعارف بين شخصين (من أنت ؟ أنا هند : ممن ؟ من أهل الخيف من منى ، أهلاً بك ..) بذا راج هذا الشعر بين أهل العصر ، وأقبل عليه الملحنون والمغنون ، وتهافتوا عليه ، وأحالوه إلى أغان عذبة ، شدت بها القيان في مجالس الغناء ، ورددتها الألسن بعد ذلك ، لا في بيئة الحجاز وحدها ، بل عبرتها إلى بيئات الغناء في العراق والشام) فهذه التركيبة اللغوية جعلت الملحنين يتلقفون انتاجه ويستحثونه بمدد من الإبداع ليلحنوه ويغنوه فيشيع وينتشر ، والكلمة الأخيرة في شعر عمر بن أبى ربيعة كما رأيته . هو ليس بمبتدع فن الغزل لكن غزله كان جديد في نوعه ذا ذاق فريد لم يتكرر يبعد غزله

١) اتجاهات الشعر في العصر الأموي صـ٤٢٠ .

عن الحسية وهو بمعزل عن العذرية فقد سلك طريقاً ضائقاً –على من سواه – في شعره ، بزَّ عمر الجاهليين في غزلياته ؛من حيث طول النفس الغرق في التفاصيل ، تفصيل المجمل ، تضخيم الصغير . والعين الخبيرة إذ ما نظرت إلى إنتاج عمر ترصد الحنكة الفنية في سبك قصائده وكأن عمر يريد إثبات اقتدار على خلق المواقف المتوالية ثم رصدها ثم حكيها قصصاً منكفءً على إبداع لفظى ،وحكى ما تضمر النفوس وما تقترفه الجوارح

–قدرة عمر على رصد الظواهر الطبيعية وصوغها في عبارات متناسقة إذ برأت من الشذوذ الصوتي واللغوي والنظمي .. واللغة انسابت بشكل بيِّن حتى في إيراد أسماء الأماكن أو تحديد المواقيت .

–شهرة الرائية الكبرى ترجع لمزايا كمنت فيها حرصت أن أقرأها قراءة جديدة يقل الاعتماد فيها على الدراسات السابقة

– يشيع في شعر عمر المتعة الفنية فلم يجد الفقهاء والصالحون غضاضة في روايته والاستشهاد به

اتسم شعره بكثير من الخلال الجميلة .. من صفاء ، وعفة ، وإقدام١)

والله الموفق وعليه حسن الجزاء

د /وجيهة محمد المكاوى

جامعة الأزهر السادات

١) ورد ذلك في رسالة دكتوراة أثر المراة في العصر الأموي ــ ٢٣٠ إذ استشهد الباحث على كل صفة بأبيات شعرية يضيق عنها المقام .

أهم المصادر والمراجع

- اتجاهات الشعر في العصر الأموي . صلاح الدين الهادي مكتبه الخانجي ١٩٨٦
- أثر المرأة في الشعر الأموي –محمود عثمان سالمان جامعة القاهرة كلية الآداب رسالة دكتوراة
- الأدب وفنونه د عز الدين إسماعيل
- الأدب وقيم الحياة المعاصرة د محمد زكى العشماوى الهيئة العامة للكتاب١٩٧٤
- الأسلوب احمد الشايب مكتبة الفاروقية ١٩٣١
- الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني – طبعة دار الكتب
- بلاغة السرد د محمد عبد المطلب وزارة الثقافة طـ ١ ٢٠١٣
- تاريخ الأدب العربي حنا الفاخورى المكتبة البوليسية لبنان طـ٦
- تاريخ الشعر العربي في العصر الأموي د يوسف خليف نهضة مصر
- الترجمة الذاتية في الأدب العربي حتى القرن الثامن عشر يحى إبراهيم جامعة القاهرة كلية الآداب اشراف د مهدى علام –د عبد القادر القط
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام شكرى فيصل دار العلم للملايين طـ ٥
- التفسير النفسى للأدب د عز الدين إسماعيل ١٩٦٣
- جماليات المكان – استون باثلا ر .ت. غالب هلسا المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع بيروت طـ٢ ١٩٨٧
- حب ابن أبى ربيعة وشعره د زكى مبارك – بدون بيانات –
- حديث الأربعاء د طه حسين دار المعارف طـ ٥جـ١
- دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث د . بدوى طبانة مكتبة الأنجلو المصرية طـ ٥

- رثاء الذات في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية محمد رمضان بيومى رسالة ماجستير إشراف د عبد الله التطاوى جامعة القاهرة٢٠٠٥ ك الآداب
- رواية السيرة الذاتية من خلال ثلاثية الخبز الحافى رسالة ماجستير سميرة محمد إشراف د جابر عصفور ج القاهرة ك الآداب
- سوسيولوجيا الغزل العربي الشعر العذرى نموذجاً –ت–دمحمد حافظ دياب طـ١ ١٩٩٤
- شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى ت– محمد محى الدين عبد الحميد طـ ١ ١٩٥٢
- الشعر الأموي د محمد فتوح أحمد دار المعارف طـ١
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية د شوقى ضيف دار المعارف ط ـ٥
- شعرنا القديم والنقد الجديد د وهب احمد رومية عالم المعرفة
- صور المرأة في شعر عمر بن أبى ربيعة خليل محمد حسين عوده – رسالة ماجستير إشراف د يوسف خليف نهضة مصر ج القاهرة ك الآداب
- الصورة الفنية في شعر لبيد صلاح مصيلحى على عبد الله ، إشراف د النعمان عبد المتعال القاضى ج القاهرة ك الآداب
- طبيعة الشعر د محمد احمد العزب منشورات أوراق ١٩٨٥
- ظفى النقد الأدبى د شوقى ضيف دار المعارف ١٩٩٦
- عمر بن أبى ربيعة – عصره – حياته –حبه شعره –جبرائيل جبور دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩
- عوامل التشويق في القصة القصيرة إبراهيم محمد عطا الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤

- الغزل عند العرب حسان أبو رحاب مطبعة مصر طـــ١ ١٩٤٧
- الغزل محمد سامى الدهان دار المعارف طـــ١
- فى الشعر الإسلامى والأموى د عبد القادر القط مكتبة الشباب ١٩٨٤
- قضايا الشعر في النقد العربي القديم جـــ ١ مكتبـــة الشـــباب طـــــ١ ١٩٧٧
- مذهب عمر بن أبى ربيعة في الغزل وتطوره الفنـــى تيســـير احمـــد مصطفى عوده رسالة ماجستير إشراف د/محمد زكى العشـــماوى ج القاهرة ك الآداب ١٩٨٠
- المرثاة الغزلية في الشعر العربي د عناد غزوان ط١ مطبعة الزهراء بغداد ١٩٧٤
- معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية دإبرهيم حماده دار المعارف ١٩٨٥ف. أما ثيث– ت.س. اليوت الشاعر والناقـــد ت– د إحســـان عباس مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر نيويورك ١٩٦٥
- المقارنة بين الشعر الأموي والعباسى في العصر الأول د عزيز فهمى دار المعارف
- المواقف الأدبية د محمد غنيمى هلال نهضة مصر ١٩٠
- موسيقى الشعر د إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية طـــ ٤